العدول عن النمط
في أسلوب الخبر والإنشاء
قراءة في التراث البلاغي

إعداد

د/أبو الفتوح عبد الوهاب الرفاعي غياتي

المدرس بقسم البلاغة والنقد

في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

fetooh1977@gmail.com

عنوان البحث	**العدول عن النمط في أسلوب الخبر والإنشاء قراءة في التراث البلاغي**
اسم الباحث	**د/أبو الفتوح عبد الوهاب الرفاعي غياتي**
الإيميل	fetooh1977@gmail.com
الكلمات المفتاحية	العدول – النمط – الخبر والإنشاء– التراث البلاغي– الظاهرة البلاغية
التوصيف الوظيفي	**المدرس بقسم البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود**

ملخص البحث

يعالج هذا البحث فكرة العدول عن النمط في الخبر والإنشاء، في محاولة لكشف عن آثار هذه الظاهرة البلاغية ومقاصدها البيانية في الأسلوب، وتأثيرها في المتلقي، بما تحمله من إثارة وإعمال فكر وإمعان نظر، ولذا فهي تعد شعبة من البلاغة فيها دقة وخفاء، لأن مخالفة الأصل والخروج على المألوف مما يستدعي الانتباه ويدعو إلى التأمل.

الكلمات المفتاحية:

العدول – النمط – الخبر والإنشاء– التراث البلاغي– الظاهرة البلاغية

Research Summary

The departure from style in the style of news and creation Read on rhetorical heritage

Dr. Abu Al-Fotouh Abdul-Wahab Al-Rifai Ghayati
Teacher at the Department of Rhetoric and Criticism
In the Faculty of Arabic Language, Itai Baroud
fetooh1977@gmail.com

This research deals with the idea of refraining from the pattern in the news and creation, in an attempt to reveal the effects of this rhetorical phenomenon and its graphic purposes in style, and its effect on the recipient, including the excitement and realization of thought and thought of consideration, and therefore it is considered a division of rhetoric in which accuracy and invisibility, because the violation of the original And getting out of the ordinary, which calls for attention and calls for reflection.

key words:
Adol - style - news and creation - rhetorical heritage - rhetorical phenomenon

مُقدِّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله خلق الإنسان علمه البيان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ أفضل الخلق من ولد عدنان، وأفصح من نطق وأبان، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان ... أما بعد،

فلا يزال التراث البلاغي نبعًا يتجددُ عطاؤه، وتتدفقُ موارده، ويفْتَرُّ للباحثين عن بدائعِهِ، ويُفْضي بهم إلى لطائفِهِ... ولا شك أن هذا التراثَ الحيويَّ مواكبٌ لحركة الفكر البلاغي والنقدي الحديث، ومسايرٌ لمستجدات البحث الأسلوبي المعاصرِ؛ لأنه الأساسُ والركيزة التي تنطلق منها كل هذه الحركاتِ التجديدية.

والمتأمل في تراثنا المشرق يرى ذلك رأي عين؛ فقد أسس علماؤنا الأوائل – رحمهم الله– لفكر أصيل وعلم يتجدد ولا يبلى، تفرعت منه كل المستجدات على الساحة الأدبية والنقدية الحديثة.. وكل النظريات التي يزعم أصحابها أنها من بنات أفكارهم هي من معدن هذا التراث، وهي منه بمثابة الفرع للأصل...

ففكرة العدول– التي يتناولها هذا البحث– قد عبر عنها النقد الحديث بمسميات عديدة، كالانزياح، والانحراف، والانتهاك، وغيرها، وهي– في الواقع– تدور في مجملها حول مصطلح واحد، أدركه علماؤنا واستخدموه في كتبهم ومصنفاتهم هو العدول؛ أقول هذه الفكرة مستمدة من تراثنا، وإن وردت وفق مناهج حديثة ومسميات شتى.

والأسلوب في علم المعاني يتسم بمرونته البلاغيةِ، وطواعيتهِ الإبداعية، ودلالاته الجانبية، فهناك ما يعرف بالمعنى والدِّلالة، أو المعنى ومعنى المعنى، على حد تعبير الشيخ عبد القاهر– في مقام آخر–" تقول: "المعنى"، و"معنى المعنى"، تَعني بالمعنى المفهومَ من ظاهر اللفظِ والذي تَصلُ إليه بغير واسطة، و"بمعنى المعنى"، أن تَعْقِل من اللفظ معنًى، ثم يُفضي بك ذلكَ المعنى إلى معنى آخر... فالمعاني الأُوَلُ هي المفهومةُ من أنْفُس الألفاظ،

والمعاني الثَّواني هي التي يُومَأُ إليها بتلك المعاني"[١]، فلا يدل اللفظ على مجرد ما ينطوي تحته من فائدة ومعنى، وإنما ينطلقُ ليوحي بإيماءاتٍ وإشارات لا تفهم إلا من جانب الصيغة بمعونة السياق والمقام وقرينة الحال.

وأسلوب الخبر والإنشاء من الأساليب البلاغية التي تفيض بالمعاني الكثيرة والتصرفات البديعة، وتتجلى فيها جمالية العدول عن الأصل،" فالخبر أوّل معاني الكلام وأقدمُها، والذي تستند سائر المعاني إليه وتترتّب عليه"[٢]، فهو أعظمها شأنًا وأعمها فائدة؛ لأنه هو الذي يتصور بالصور الكثيرة، وتقع فيه الصناعات العجيبة، وفيه يكون غالبا المزايا التي بها يقع التفاضل في الفصاحة[٣]. والإنشاء متفرع عليه لأنه إنما يحصل منه باشتقاق، كالأمر والنهي أو نقل كعسى ونعم، وبعت واشتريت، أو زيادة أداة كالاستفهام والتمني وما أشبه ذلك[٤]. وهو أيضا من وسائل التعبير المهمة عن شتى الأغراض والمقاصد، وعالم الشعور والإحساس فليس دون الخبر شأنا وفائدة [٥].

ولذا يممت وجهي شطر هذين الأسلوبين أرتشف من رحيق أسرارهما البديعة ولطائفهما الخبيئة التي تتجلى في عدولهما عن الأصل من خلال تراث علمائنا البلاغي وما يمكن أن يذخر به من إشراقات تتجدد بتجدد مناحي البحث والتنقيب في هذا التراث العريق.

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني، ص ٢٦٣، ٢٦٤ ت: العلامة محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة، ط: ثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م. (وقد مثلت بكلام الشيخ هنا مع ذكره في باب الكناية والاستعارة والتمثيل؛ لأن المعاني التي تستفاد من الخبر هنا من قبيل مستتبعات التراكيب).

(٢) أسرار البلاغة، للإمام عبد القاهر الجرجاني، ص٣٦٦ ت: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة، ط: الأولى ١٤١٢هـ١٩٩١م.

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز، ص٥٢٨، ٥٤٣، والمطول على التلخيص للعلامة سعد الدين التفتازاني، ص٤٣، مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ.

(٤) ينظر: المطول، ص٤٣.

(٥) علم المعاني د. صبّاح عبيد دراز، ص٧٥، مطبعة التركي بطنطا ١٩٩٧.

من هنا جاءت فكرة هذا البحث الموسوم بـ:" **العدول عن النمط في أسلوب الخبر والإنشاء، قراءة في التراث البلاغي**"؛ لأفصح به عن أهم مظاهر العدول الأسلوبي في الخبر والإنشاء من خلال مساورة الأساليب، واستبطان ما فيها من مظاهر الخروج عن النمط القياسي، بمنهج وصفي تحليلي.

وأبواب المعاني– ومن جملتها أسلوب الخبر والإنشاء – تقوم على رعاية مستويين، الأول: المستوى النمطي أو المثالي، الذي يمثل الأصل، ويعتمد النحو التقعيدي في تشكيل عناصره، كما يعتمد اللغة في تنسيق هذه العناصر... وهذا قام على رعايته النحاة واللغويون، وانتقل الأمر إلى البلاغيين فنظروا إلى النحو باعتباره العامل الأساسي في تأدية أصل المعنى. والثاني: المستوى الفني أو الإبداعي، وهو ما يمثل العدول عن الأصل والذي تظهر من خلاله الطاقات الإيحائية للأسلوب(١). وهذا يعني أن الدراسات النحوية واللغوية ركزت على استنباط القواعد التي تتعلق بالكلام، في حين تجاوز علماء المعاني هذه الشكلية وهذه القواعد المثالية إلى فهم أعمق وأدق للمعنى، فغاصوا في أغواره كاشفين عن أسراره.

ولذا يرى البعض أن فكرة العدول أو الانحراف أو الاختلاف، تمثل جوهر اللغة الإبداعية.. وأن لغة الشعر تعمد إلى مفارقة النسق المعتاد لأن ذلك مناط جماليتها، فالمألوف من القول لا يثير في المتلقي أي إحساس؛ لأنه يجري بحسب الإلف والعادة، أما الانحراف أو العدول فهو ما يتوسل به لهز يقظة المتلقي وشعوره(٢).

---

(١) يراجع: نظرية اللغة في النقد العربي، د. عبد الحكيم راضي، ص١٩٣، ١٩٤، ٢٠٥، ٢٠٦ ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط: الأولى، ٢٠٠٣م، والبلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب، ص ٢٦٨، ٢٦٩، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط: الثالثة،٢٠٠٩م

(٢) ظاهرة العدول في شعر المتنبي، مصطفى عبد الهادي عبد الله، ص ٩، ١٠(بتصرف) المجموعة العربية للتدريب والنشر، ط: الأولى ٢٠١٠م.

وفكرة الأصل هي الأساس الذي ننطلق منه لبحث تقنيات العدول عن النمط، إذ لا يفهم العدول دون مراجعة الأصل والوقوف عليه،" ومن هنا كان حرص البلاغيين واضحا على التذكير به في مثل قولهم:" أصل المعنى" و" أصل الكلام" و" رعاية الأصل".. فإذا كان النحاة واللغويون يهتمون بما يفيد أصل المعنى، فإن النقاد والبلاغيين ينطلقون فيما يلي هذه الإفادة من عناصر جمالية"(١).

وهذا لا يعني خلو الأصل من القيمة البلاغية، بل إن المقام قد يقتضيه، كما في قوله تعالى – حكاية عن موسى عليه السلام-:﴿هِيَ عَصَايَ﴾ [طه:١٨]، فجاء الأسلوب على الأصل بسطا للكلام حيث الإصغاء مطلوب(٢)... وهذا ما أكده البلاغيون في كل المواضع التي ينطلقون فيها من الأصل إلى خلافه.. فالبلاغة لا تهتم بما خالف الأصل فحسب بل تدرس الكلام وإن وافق الأصل استظهارا للدلالات اللغوية والأسرار البلاغية في استعماله.

ومن ثم فإن "معرفة أصل المعنى تبدو مهمة بالنسبة للبلاغي في ظل الكلام عن الكيفيات التي يطابق بها اللفظ مقتضى الحال لأنه من خلالها يستطيع أن يكشف عن المزايا الفنية في التركيب، وعليه يستطيع أن يحدد مواطن الصواب والخطأ البلاغي وفق ما تمليه نظرية مطابقة الكلام لمقتضى الحال"(٣).

هذا ويقوم البحث بعد هذه المقدمة – المشتملة على أهمية الموضوع ومنهجه – على تمهيد حول مصطلح العدول، ومبحثين، وخاتمة أبرز فيها أهم نتائج البحث.

والله من وراء القصد...

---

(١) يراجع: نظرية اللغة في النقد العربي، ص ٢٠٩، ٢١١، ٢١٢، والبلاغة والأسلوبية، ص ٢٦٩، ٢٧٠.

(٢) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ٢/ ٨، ت: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط: الثالثة.

(٣) مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، حامد صالح الربيعي، ص ٥٨٣، منشورات جامعة أم القرى،١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

تمهـــيد

حول مصطلح العدول

وردت مادة العدول في كتب اللغة لمعان عديدة تدور في أغلبها حول معنى: الميل، والرجوع، والانصراف عن الشيء؛ ففي كتاب العين: والعَدْلُ أن تَعْدِلَ الشيء عن وجهه فتميله... وعَدَلْتُ الشيءَ أقمته حتى اعتدل... وعَدَلْتُ الدّابّة إلى كذا: أي: عطفتها فانعدلت(١). وفي مقاييس اللغة: (عَدَلَ) العين والدال واللام أصلان صحيحان، لكنهما متقابلان كالمتضادين: أحدهما يدل على استواء، والآخر يدل على اعوجاج(٢). وجاء في اللسان: وعَدَلَ عَنِ الشَّيْءِ يَعْدِلُ عَدْلًا وعُدولًا: حَادَ، وَعَنِ الطَّرِيقِ: جَارَ، وعَدَلَ إِليه عُدُولًا: رَجَعَ. وَمَا لَه مَعْدِلٌ وَلَا مَعْدُولٌ أَي مَصْرِفٌ. وعَدَلَ الطريقُ: مَالَ... وَفِي الْحَدِيثِ: لَا تُعْدَل سارِحتُكم، أَي لَا تُصْرَف مَاشِيَتِكُمْ وتُمال عَنِ المَرْعى وَلَا تُمنَع(٣).

فدلالة العدول في اللغة إذًا هي الخروج عن أصل ما والميل عنه إلى غيره، ومن هذه الدلالة اللغوية استخدم علماؤنا القدامى مصطلح العدول بمعنى مخالفة الأصل والخروج عن السائد والمتعارف عليه للأسلوب بصورة عامة، فأدركوا ذلك استعمالا وإن لم يعرفوه كمصطلح فني بمفهومه الحديث، وهذا يشير إلى أن دلالة العدول اللغوية تكاد تتفق مع مفهومه الجوهري في التراث البلاغي والنقدي؛ " وذلك أن هناك شبه اتفاق على أن في العدول ميلا من صياغة إلى صياغة أخرى، رغم عدم الاتفاق على مصطلح واحد، فهناك أكثر من مصطلح يستعمل لهذه الظاهرة الأسلوبية، وقد سرد أحد الباحثين المصطلحات المماثلة التي استخدمها النقد المعاصر للتعبير عن العدول

---

(١) كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي ٣٩/٢ (عَدَلَ) ت: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، نشر: دار ومكتبة الهلال.

(٢) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس٢٤٦/٤(عدل) ت:عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٣) لسان العرب لابن منظور (مادة: عدل)، دار صادر – بيروت، ط: الثالثة، ١٤١٤هـ.

فأوصلها إلى اثني عشر مصطلحا "[1]، والعجيب أنه لم يذكر من بينها مصطلح العدول مع أنه يغني عنها جميعا.

وقد تنبه العلماء قديما إلى مصطلح العدول وحظي بعنايتهم وصرحوا به كثيرا أثناء تحليلهم للظاهرة اللغوية، فنرى الرمّاني(ت:٣٨٦هـ) يشير إليه في باب المبالغة، فذكر أنها تكون على وجوه، منها المبالغة في الصفة المعدولة عن الجارية بمعنى المبالغة، وذلك على أبنية كثيرة... ومن ذلك(فَعَّال)، كقوله عز وجل:﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾ [طه:٨٢]، معدول عن غافر للمبالغة[2].

وابن جني(ت:٣٩٢هـ) يعقد بابا عنوانه:" العدول من الثقيل إلى ما هو أثقل منه لضرب من الاستخفاف"[3] ويذكره في باب الحقيقة والمجاز، فيقول: وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلاثة، وهي: الاتساع والتوكيد والتشبيه[4]. وأيضا عند حديثه عن قوة اللفظ لقوة المعنى، يقول: ونحو من تكثير اللفظ لتكثير المعنى العدول عن معتاد حاله. وذلك فُعَال في معنى فعيل، نحو طُوال، فهو أبلغ معنى من طويل[5].

والشيخ عبد القاهر(ت:٤٧١هـ) يستعمله للدلالة على ترك طريقة في الصياغة إلى طريقة أخرى أحسن في التعبير عن المعنى، وذلك في سياق حديثه عن إظهار المفعول وإضماره، قال معلقا على قول الشاعر:

---

(١) ينظر: الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، ص١٠٠، ١٠١، الدار العربية للكتاب، ط: الثالثة، والعدول في البنية التركيبية، قراءة في التراث البلاغي، د. إبراهيم منصور التركي، ص٥٤٩ – بحث منشور بمجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، الجزء ١٩، العدد٤٠، ١٤٢٨هـ.

(٢) ينظر: النكت في إعجاز القرآن، لعلي بن عيسى الرماني، ص ١٠٤، ت: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط: الثالثة، ١٩٧٦م.

(٣) الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني ٢٠/٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: الرابعة.

(٤) الخصائص ٤٤٤/٢.

(٥) الخصائص ٢٧٠/٣.

ولَوْ شِئتُ أَنْ أبْكي دماً لبَكَيْتُهُ ... عليهِ ولكنْ ساحةُ الصبرِ أوْسَعُ[١]

فقياسُ هذا لو كان على حدِّ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾[الأنعام:٣٥] أن يقول: " لو شئتُ بكيتُ دماً"، ولكنه كأنه تركَ تلك الطريقةَ وعدَلَ إلى هذه، لأنها أحسن في هذا الكلام خُصوصاً. وسببُ حسْنِه أنه كأنه بِدْعٌ عجيب أنْ يشاءَ الإنسانُ أن يَبْكي دَماً. فلما كان كذلك، كان الأَولى أن يُصرِّحَ بذكره ليقرِّرَهُ في نفسِ السامع ويُؤنِسه به[٢].

ويورده أيضا في قوله:" اعلمْ أَنَّ الكلامَ الفصيحَ ينقسمُ قسمين: قسمٌ تُعْزَى المزيَّة والحسْنُ فيه إلى اللفظِ، وقسمٌ يعزى ذلك فيه إلى النظم. فالقسم الأول: "الكناية" و"الاستعارة" و"التمثيل الكائنُ على حَدِّ الاستعارة"، وكلُّ ما كان فيه، على الجملة، مَجازٌ واتساعٌ وعُدُولٌ باللفظ عن الظاهر[٣].

ويعد الزمخشري(ت:٥٣٨هـ) من أبرز العلماء الذين عرضوا للعدول في القرآن الكريم، حيث " ذخر كتابه الكشاف بهذه الظاهرة الأسلوبية البلاغية، فقد أدرك أن ما في هذه المغايرات من انحراف عن القواعد المثالية عند النحاة جاءت لغايات جمالية قصدية، فنبه إلى كثرة انتشارها، وبيّن مواضعها في الكتاب العزيز، وهي عنده من الكثرة بحيث يصعب معها الاستقصاء"[٤].

---

(١) للخُرَيْمي، وهو إسحق بن حسان السُّغْدي، يرثى عثمان بن عامر بن عمارة بن خريم الذبياني، أحد قواد الرشيد.[تعليق الشيخ شاكر على دلائل الإعجاز، ص ١٦٤] وهو في الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرد٣/٤، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط. الثالثة ١٤١٧هـ- ١٩٩٧ م.

(٢) دلائل الإعجاز، ص ١٦٤.

(٣) دلائل الإعجاز، ص٤٢٩، ٤٣٠.

(٤) ينظر: دلالة العدول في صيغ الأفعال، دراسة نظرية تطبيقية، د. غياث بابو، ص١٨، (بحث منشور بمجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، جامعة سامنان الإيرانية وتشرين السورية، العدد ١٢، ١٣٩١هـ- ٢٠١٣م).

فمن ذلك قوله في حديثه عن الالتفات في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب قلت هذا يسمى الالتفات في علم البيان... وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد(١).

ولم يقصر العدول على الالتفات وإنما وسع دائرته، ففي سياق تفسيره لقوله تعالى:﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:٦٠]، يقول: فإن قلت: لم عدل عن اللام إلى «في» في الأربعة الأخيرة ؟ قلت: للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره، لأنّ « في» للوعاء، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصباً(٢).

ويجعل العدول في الصيغة أيضا فيقول في قوله تعالى:﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾[هود:١٢]، فإن قلت: لم عدل عن ضيق إلى ضائق؟ قلت: ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفسح الناس صدرا(٣).

والسكاكي (ت:٦٢٦هـ) – وهو يمثل مرحلة فاصلة في التأريخ البلاغي– يذكر العدول في أعقاب حديثه عن تعريف المسند إليه بالموصولية، فيقول: والعدول عن التصريح باب من البلاغة يصار إليه كثيراً(٤). كما أنه صرح كثيرا بعبارة:

---

(١) ينظر: الكشاف للعلامة الزمخشري ١٣/١، ١٤، دار الكتاب العربي، بيروت ط: الثالثة، ١٤٠٧هـ.

(٢) الكشاف ٢٨٣/٢.

(٣) الكشاف ٣٨٢/٢.

(٤) مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف السكاكي، ص١٨١، ت: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الثانية ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

"إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر" وهي تعني العدول عن الأصل؛ فيقول مثلا – في خاتمة حديثه عن التقديم والتأخير–:" وقد عرفت فيما سبق، أن إخراج الكلام، لا على مقتضى الظاهر، طريق للبلغاء، يسلك كثير تنزيل نوع مكان نوع باعتبار من الاعتبارات، فليكن على ذكر منك"(١). ويقول أيضا:" واعلم أن الطلب كثيراً ما يخرج لا على مقتضى الظاهر، وكذلك الخبر، فيذكر أحدهما في موضع الآخر، ولا يصار إلى ذلك إلا لتوخي نكت قلما يتفطن لها من لا يرجع على دربة في نوعنا هذا، ولا يعض فيه بضرس قاطع"(٢). وعبارته رحمه الله هي خير ما يمثل العدول في تراثنا البلاغي فهي الأساس الذي ارتكز عليه بحث العدول.

وأما ابن الأثير(٦٣٧هـ) فقد عرض للعدول في مواضع عدة، فيذكر– في حديثه عن آلات علم البيان وأدواته – أن مؤلف الكلام يفتقر إلى معرفة عدة أسماء لما يقع استعماله في النظم والنثر؛ ليجد إذا ضاق به موضع في كلامه بإيراد بعض الألفاظ سعة في العدول عنه إلى غيره، مما هو في معناه(٣).

ويقول أيضا: واعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان، أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة، الذي اطلع على أسرارهما، وفتش عن دفائنهما، ولا تجد ذلك في كل كلام؛ فإنه من أشكل ضروب علم البيان، وأدقها فهما، وأغمضها طريقا(٤).

وللحق.. فقد كان للمفسرين اليد الطولى في إبراز الجانب الجمالي لهذا الأسلوب البياني الرائق من خلال تطبيقه على آي القرآن، إذ تبين من

(١) مفتاح العلوم، ص ٢٣٩.
(٢) مفتاح العلوم، ص ٣٢٣.
(٣) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ٣٧/١، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ.
(٤) المثل السائر ٢ / ١٢.

تطبيقاتهم أن التعبير القرآني لا يخالف أصل استعماله إلا لغرض بلاغي يعمد إليه، ومن ثم أبرزوا هذا الجمال البياني الأخاذ لأسلوب العدول.

وإذا كان لا يمكننا أن نستثنى أحدا من المفسرين، فقد فتق كل منهم أكمام هذا الفن على حسب ما وهبه الله من فتح وعطاء، إلا أننا لا يمكننا إغفال الإشارة إلى إعجابنا الباهر بالزمخشري في كشافه، والطيبي في أزهاره، ثم علماء المتشابه القرآني كالإسكافي والغرناطي، وابن الزبير، وابن جماعة، وعلماء المناسبة القرآنية كالرازي والبقاعي، وحديثا الطاهر بن عاشور، والسامرائي[1].

وواضح أن هؤلاء الأجلة قد تناولوا هذا المصطلح على أنه نمط أسلوبي ومسلك تعبيري لم يوافق الأصل اللغوي في استعماله؛ فأظهروا بعض أسرارِه في كثير من تحليلاتهم وتأويلاتهم وإن لم يبوبوا فيه بابا ولم يصنفوا فيه كتابا.. وكفاهم أنهم لفتوا إليه ونبهوا عليه، ففتحوا الطريق لمن جاء بعدهم مرتكزا على أصولهم ومتكئا على أفكارهم.. على أن ما غرسوه من أصول لهذا المصطلح لم يخرج عنها العدول بمفهومه الحديث إلا تفريعات وتأويلات راجعة إلى الجذور الأولى أيضا.

ومن المهم أن نشير إلى أن ما تناوله البلاغيون تحت ما يسمى بمخالفة مقتضى الظاهر هو ما يمثل العدول عن الأصل؛ لأن كل هذه الأنماط التعبيرية لم توافق الأصل اللغوي المفترض، وهو ما يتطابق مع العدول.. مع أننا لا نعدم في كل باب من أبوابهم حديثا عن العدول، فقد كان من دأبهم أن يذكروا استعمالات الأصل، ومعانيه، ثم يعقبوا ذلك بذكر ما يخالف فيه الكلام ذلك الأصل[2].

---

(١) العدول القرآني في سياق إجلال النبي– ﷺ– وإيناسه "دراسة بلاغية" د. رفعت على محمد، ص ١٧١٥، (بحث منشور بمجلة كلية أصول الدين بأسيوط، العدد (٣١) ٢٠١٣ م).

(٢) العدول القرآني، د. رفعت علي محمد، ص ١٧١٦(بتصرف).

وفي مجال الدراسات الأسلوبية المعاصرة " تضاربت أقوال اللسانيين المحدثين في تعدد تسمية مصطلح العدول، فهم يطلقون على هذا المفهوم تسميات كثيرة ومختلفة توحي بغير المألوف وتصف التجاوز والتخطي، وهنا نصادف إشكالية في المصطلح إذ أن عدم الدقة في الترجمة والنقل من الثقافات الأخرى أدى إلى نوع من الغموض والاضطراب في قضايا المصطلح"(١).

ويمكن أن يكون "عبد السلام المسدي" أول من استخدم المصطلح تحت اسم الانزياح؛ ليعني به التجاوز تارة ، والعدول أخرى، وقد كثر الجمع بين مصطلحي العدول والانزياح إلى حد عدهما مصطلحا واحدا، غير أن الأول قديم بلاغي والثاني حديث أسلوبي(٢)." فمصطلح الانزياح معادل أسلوبي حديث لمصطلح العدول البلاغي الذي يعني أن شعرية اللغة تقتضي خروجها السافر على العرف النثري المعتاد، وكسر قواعد الأداء المألوفة لابتداع وسائلها الخاصة في التعبير عما لا يستطيع النثر تحقيقه من قيم جمالية"(٣).

بل إن أهم العناصر الخاصة بالقول الجمالي لديهم هو أنه يكسر نظام الإمكانات اللغوية الذى يهدف إلى نقل المعاني العادية، أي أنه يكسر نظام اللغة العادي، لأجل زيادة عدد الدلالات الممكنة(٤).

---

(١) العدول في الجملة القرآنية، د. عبد الله خضر حمد، ص ٣٥، دار القلم، بيروت، ٢٠١٧م.

(٢) ينظر: الأسلوبية والأسلوب، ص ١٦٢، ١٦٣، ودلالة العدول في صيغ الأفعال، د.غياث بابو، ص٢٠.

(٣) ظواهر فنية في لغة الشعر العربي الحديث، علاء الدين رمضان السيد، ص ١٤١، منشورات الكتّاب العرب، دمشق ١٩٩٦م.

(٤) ينظر: نظرية البنائية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل، ص ٣٧٥، دار مختار، القاهرة ١٩٩٢م.

فالعدول إذا هو(الخروج عن النمط السائد للأسلوب لغايات فنية من شأنها أن تحدث تأثيرا في المتلقي). أو هو (تجاوز الأصل في نسق التعبير قصدا إلى التأثير والإقناع والإمتاع).

فهو قائم على عنصر المفاجأة والإثارة بما فيه من مخالفة القواعد المألوفة لغة المعروفة استعمالا.. مع ملاحظة القرائن الحالية والمقالية، وهذا يتطلب سبر أغوار النصوص للوقوف على أسرار هذا التحول الأسلوبي.

وقد عرفه أحد الباحثين بأنه: "مجاوزة السنن المألوف بين الناس في محاوراتهم، و ضروب معاملاتهم، لتحقيق سمة جمالية في القول تمتع القارئ، وتطرب السامع وبها يصير نصا أدبيا"(١). وهذا التعريف يوسع دائرة العدول ليشمل كل صور الصياغة الأدبية، فلا يقف عند صور تحول الأسلوب وعدوله عن النمط القياسي، وهذا مما يخرج عن إطار هذه الدراسة وهدفها؛ لأنها تبتغي الوقوف على ما خرج عن أصل استعماله في أسلوب الخبر والإنشاء في تراث علمائنا واستجلاء ما فيه من دلالات بلاغية وأسرار بيانية.

وعلى هذا فإن التعريف المناسب للعدول هنا هو ما ذكرته آنفا من الخروج عن النمط أو تجاوز الأصل. وهو قريب من تعريف أحد الباحثين للعدول بأنه: "مخالفة الكلام لصياغته اللغوية الأصلية المفترضة، لتحقيق قيمة جمالية أو دلالة بلاغية"(٢). وهو ما سيصير في ظلاله هذا البحث بعون الله ومدده.

❁❁❁❁❁

(١) رؤية في العدول عن النمطية في التعبير الأدبي، د. عبد الموجود متولي بهنسي، ص ٥، ط:الأولى ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

(٢) العدول في البنية التركيبية، د إبراهيم منصور التركي، ص ٥٥٠.

المبحث الأول

العدول في أسلوب الخبر

لا يكون الأسلوب أسلوبا معبرا عن المعاني والأغراض المختلفة التي يقصدها منشؤه إلا إذا تآزرت مفرداته وانضمت كلماته وترابطت بعضها ببعض برباط معنوي لا يدركه الحس، وهو بمثابة المِلاط في البناء، فبناء الكلمات في العبارات كبناء اللبنات في صروحها المشيدة، ولا يدرك الحسن والجمال فيها إلا بما توخي فيها من إحكام هذه الصلات القائمة على قوانين النحو، واعتبر فيها حسن الملاءمة والمؤانسة بين معانيها.. وهذا هو مدار النظم الذي أسسه الشيخ عبد القاهر في دلائل الإعجاز(١). فهو يقول مثلا: " اعلم أن ليسَ النظمُ إلا أن تضع كلامكَ الوضعَ الذي يَقتضيهِ علمُ النحو، وتعملَ على قوانينهِ وأُصولِه، وتعرفَ مناهجَه التي نُهِجتْ فلا تزيغ عنها، وتحفَظَ الرُّسومَ التي رُسمتْ لك، فلا تُخِلُّ بشيءٍ منها "(٢). ويعرفه في غير موضع بقوله: النظم هو توخّي معاني النحو وأحكامِه ووجوهه وفروقِه فيما بين معاني الكلم(٣). ويبين أنه لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يُعلَّق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسببٍ من تلك(٤).

وبراعة الأسلوب تكمن في مقدرة الأديب على صوغ أفكاره ونقل مشاعره وما تطويه نفسه، بحيث تنطبع نفسيته ومكنوناتها على أسلوبه، متخذا – بحذق وبراعة – من مفردات اللغة مادة لهذا البناء اللغوي والأدبي الذي تتولد منه المعاني والأفكار والخواطر... وهذا البناء يسميه البلاغيون الإسناد، وهو ضم الكلمات وإسناد بعضها إلى بعض إثباتا أو نفيا.

---

(١) يراجع: دلائل الإعجاز، ص ٤٣-٤٦، ٤٩، ٥٠، ٥٥، ٥٦(على سبيل المثال).
(٢) دلائل الإعجاز، ص ٨١.
(٣) ينظر: دلائل الإعجاز، ص ٤٥٢، ٤٥٤، ٥٢٥.
(٤) دلائل الإعجاز، ص٥٥.

وهذا الأسلوب الذي ينقل المعاني لا يخلو من أن يكون له واقع يطابقه أو لا يطابقه، فإن طابقه يكون صادقا وإن لم يطابقه يسمى كاذبا، وهذا هو الخبر. فالخبر هو الكلام الذي يكون لنسبته خارج في أحد الأزمنة الثلاثة تطابقه أو لا تطابقه، أو هو ما يحتمل الصدق والكذب لذاته، فإن طابقت نسبته الكلامية النسبة الخارجية أو الواقعية فهو صادق، وإلا فكاذب(١).

والعدول في الأسلوب الخبري يتحقق في أغراضه ومقاصده التي يخرج عن حقيقته إليها، وأيضا في تنزيلاته على خلاف مقتضى الظاهر لأسرار تتجلى من خلال سياقاتها المتنوعة، ومقاماتها المختلفة.

أولا: أغراض الخبر

القصد من الخبر إفادةُ المخاطب، إما: **مضمون الخبر وفائدته**؛ كقولك:" زيد قائم" لمن لا يعلم أنه قائم، فتفيده معرفة وعلمًا. وإما: **لازم الفائدة**، وهي كون المخبر عالما بالحكم، كقولك لمن "زيدٌ" عنده ولا يعلم أنك تعلم ذلك:" زيدٌ عندك"(٢)، وهذا الغرض لا يقدم جديداً للمخاطب وإنّما يفيد أنّ المتكلم عالم بالحكم، وهذا هو الأصل في الخبر. لكني أرى أن في الجملة إفادةً أخرى من حيث تقديم ما قدم اهتماما وإظهارا له وأن مدار الكلام عليه، والحكم راجع إليه. وقد أشار الشيخ عبد القاهر إلى ذلك في سياق حديثه عن تقديم المسند إليه على الفعل، من أن تقديم ذكر المحدَّثِ عنه يكون القصد إليه، والتنبيه له وأنه آكد لإثبات الفعل له(٣).

---

(١) ينظر: الإيضاح ٥٦/١، ٥٧، وشروح التلخيص للعلامة سعد الدين التفتازاني وآخرين ١٦٥/١، ١٦٦ ، دار السرور– بيروت، والمطول، ص ٣٨، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢٥٦/٣، ٢٥٧، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

(٢) ينظر: شروح التلخيص ١/ ١٩٢– ١٩٦، والإيضاح ٦٥/١، ٦٦.

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز، ص١٨٢–١٣٢.

غير أن الخبر لا يتوقف عند هذين المعلمين- وإن كانا أصلا- بل يخرج عنهما لمعان كثيرة، وأغراض بلاغية يقتضيها العدول عن الظاهر إلى خلافه، وهذه الأغراض المتولدة عن التصرفات الأسلوبية تعبر عن نفسية المتكلم وتثير السامع وتدعوه إلى المشاركة الوجدانية .. والمعول عليه في ذلك هو السياق وقرائن الأحوال؛ لأنه إذا ورد الخبر لا للإفادة ولا للازمها تستنبط فائدته من سياق الكلام وقرينة المقام. قالوا: وهذه المعاني الفرعية إنما تستنبط من الأسلوب بطريق التلويح والإشارة فهي من مستتبعات التراكيب، وقيل هي مفادة من الخبر بطريق المجاز أو الكناية، والأول أولى(١).

وقد نبه البلاغيون إلى أن الخبر غالبا ما يقصد به أغراض تتجاوز حدود الفائدة ولازمها، وهذه الأغراض لا تتناهى، وقد أجمل ذلك العلامة السعد بقوله:" كثيرا ما تورد الجملة الخبرية لأغراض أخر سوى إفادة الحكم أو لازمه ، كقوله تعالى- حكاية عن امرأة عمران-:﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾[آل عمران:٣٦]؛ إظهارا للتحسر على خيبة رجائها وعكس تقديرها، والتحزن إلى ربها لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكرا ، وقوله تعالى-حكاية عن زكريا عليه السلام- :﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾[مريم:٤]، إظهارا للضعف والتخشع، وقوله تعالى:﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾[النساء :٩٥]، ادكارا لما بينهما من التفاوت العظيم، ليأنف القاعد ويترفع بنفسه عن انحطاط منزلته، ومثله:﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر:٩] تحريكا لحمية الجاهل. وأمثال هذا أكثر من أن يحصى "(٢).

فإن امرأة عمران كان يحدوها الأمل ويراودها الرجاء في أن تلد ذكرا تهبه لخدمة بيت المقدس، فلما خاب رجاؤها في ذلك بأن وضعت أنثى، أظهرت

(١) ينظر: حاشية العلامة الدسوقي على مختصر المعاني ١/ ١٩٣، والإيضاح ٦٥/١.
(٢) المطول، ص ٤٣، وينظر: مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ١/ ١٩٣.

ذلك في صورة الخبر الذي يشف حسرة وحزنا، فلما لم ترد من إخبارها الإفادة ولا لازمها لإحاطة علم الله بكل شيء؛ دل ذلك على خروج الخبر عن وضعيته الأصلية وعدوله عن نمطه المتداول إلى إظهار التحزن والتحسر، وهذا المعنى إنما يستنبط من سياق الكلام لا أن الخبر يدل عليه ظاهرا مكشوفا، بل فيه تدرج في الدلالة على هذا المعنى. وانظر إلى أخبارها المتوالية:﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ تواصل في إظهار مشاعر الحزن والأسى، ثم إنها قدمت ذلك بين يدي دعائها بأن يكلأ الله ابنتها مريم ويحفظها من الشيطان الرجيم،﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، فكانت الإجابة من السميع العليم:﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾[آل عمران:٣٧] حيث جعلها الله وابنها آية للعالمين.

وكذا في حكاية زكريا عليه السلام:﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾، هو لم يرد من الخبر دلالته الأصلية، فالله تعالى يعلم السر وأخفى، فلا يخفى عليه حاله ، ولكن مقولته عليه السلام توحي ببعد آخر يستنبط من السياق وهو إظهار الضعف والتخشع إلى ربه تعالى، تمهيدا لأن يطلب من ربه تعالى أن يمن عليه ويهبه وليا، ولذا عقب بقوله:﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾؛ إمعانا في إظهار ضعفه وبلوغه من الكبر حدا صار معه خائر العزم ضعيف القوى... ثم قال:﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[مريم:٥،٦]، فكانت البشارة بالعطاء الإلهي:﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ [مريم :٧].

وبيان المنزلة والتفاوت في الفضيلة، في قوله تعالى:﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِم﴾ أيضا يفهم من وراء الخبر لا من دلالته الأولية، فيذّكر القاعد عن الجهاد ويزدجر لما يتضمنه الخبر من إعلاء شأن المجاهد ورفعة منزلته عند الله تعالى، فيتحرك القاعد ويترفع عن انحطاط رتبته.

وتتحرك حمية الجاهل وأنفته حين يسمع قوله تعالى:﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والخبر في وضعيته الأصلية يفيد أن العالم وغيره لا يستويان مثلا، ويستنبط من عدول الخبر عن هذا المعنى، معنى ثانيا وهو الدلالة على دونية الجاهل وانحطاط شأنه.

وتتأمل قوله تعالى على لسان المؤمنين في الجنة:﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[فاطر:٣٤] فتلمح من وراء هذا الخبر شعور الفرح والبهجة والرضا والطمأنينة.. إذ ليس القصد منه إخبارا .

وقول الأشعريين وفيهم أبو موسى لما دنوا من المدينة: "غدا نلقى الأحبهْ .. محمدا وحزبهْ"(١)، فتتجلى مشاعر اللهفة الشوق والحب من وراء الأسلوب.

كما تجد الاعتذار الرقيق في قول إخوة يوسف عليه السلام:﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾[يوسف:٩١]، فهم لم يقصدوا إعلامه بمدلول الخبر وفائدته، وإنما أرادوا إظهار اعتذارهم وأسفهم لما كان منهم قِبَلَ أخيهم.

وقد ألمح العلامة السبكي إلى فائدة جليلة، وهي أن كلام العباد مع الله تعالى لا يحمل على الإفادة ولا لازمها، لعلمه تعالى بجميع الكائنات، فيخرج إلى اعتبارات تناسب المقام، ولأنه ليس من شرط الإفادة أن تكون لمن الخطاب معه، بل تكون لغيره، وهذا حق، فقول موسى عليه السلام:﴿هِيَ عَصَايَ﴾[طه:١٨] تحبب وتلذذ بالمناجاة، وقوله:﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[القصص:٢٤]، دعاء وتضرع وطمع في نزول الخير... وهكذا(٢).

ومنه في الموروث الشعري، قول الحارث بن وعلة الذُّهلي:

قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أُميمَ أخي ... فإذا رمَيْتُ يُصيبُنِي سَهْمِي

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٨٣/١٩، ت: شعيب الأرنؤوط، وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت ط: الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١.

(٢) ينظر: عروس الأفراح للبهاء السبكي١/ ٢٠١، وعلم المعاني، د. صباح دراز، ص ٨٠، ٨١.

فلِئنْ عفَوْتُ لأَعْفُوَنْ جَلَلاً ... ولئنْ سَطَوْتُ لأُوهِنَنْ عَظْمي(١)

ليس المراد من الخبر الإفادة، فأميمة المخاطَبَة عالمة بأن القاتلين لأخيه قومُه وتعلم أنه عالم بذلك، ولكنه أراد من وراء إخباره أن يظهر الحزن والحسرة والعجز عن الأخذ بثأره من قومه وعشيرته، لأن عزّ الرجل بعشيرته. ولذلك يقول الإمام المرزوقي: هذا الكلام تحزنٌ وتفجعٌ وليس بإخبار(٢).

فالشاعر هنا – كما يقول أبو موسى– ممزق النفس موجوع القلب ضيق الصدر بهذه الجريمة البشعة التي صيرته إلى هذا الموقف المتناقض الضيق، فقومه قتلة أخيه، وحين يرميهم، فإنه يرمي نفسه ... وكأنه يهمس في أذن صاحبته بأوجاعه الحزينة، ويسر لها بهذا الألم الكظيم(٣).

وقول عمرو بن كلثوم:

إذا بلغَ الفِطَامَ لنا رضيعٌ ... تَخِرُّ له الجَبابِرُ سَاجِدِينَا (٤)

فهو لم يرد الإخبار وإنما أراد الفخر وإظهار القوة والعظمة، حتى كأن الأسلوب يكاد يتفجر عزة وتفاخرا .

وقول لبيد بن ربيعة العامري:

ذَهَبَ الّذينَ يُعاشُ في أَكْنَافِهِمْ ... وبَقيتُ في خَلْفٍ كجِلدِ الأَجْرَبِ(٥)

---

(١) شرح ديوان الحماسة، أحمد بن محمد المرزوقي ص١٤٩، تحقيق: غريد الشيخ. دار الكتب العلمية– بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م، و دلائل الإعجاز، ص ٢٥٣.

(٢) شرح ديوان الحماسة، ص١٤٩، والمطول، ص ٤٣.

(٣) خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. محمد أبو موسى، ص ١٥٩، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: الخامسة، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

(٤) ديوان عمرو بن كلثوم، ص ٧١، وروايته:" لنا صبِيٌّ "، دار صادر بيروت، ط: الأولى، ١٩٩٦م.

(٥) ديوان لبيد بن ربيعة، ص ٢٤، دار المعرفة، ط: الأولى، ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م.

فلا يخفى أن القصد منه إظهارُ الحسرة والأسف على ما فات، وهو ما يستتبعه الخبر.

وقول جعفر بن علبة الحارثي:

هوايَ معَ الرَّكبِ اليَمَانِينَ مُصْعِدٌ ... جَنِيبٌ وجُثمانِي بمكةَ مُوثَقُ(١)

ومعناه كما يقول المرزوقي: هواي راحلٌ ومبعدٌ مع ركبان الإبل القاصدين نحو اليمن، منضمٌ إليهم، مقودٌ معهم، وبدني مأسورٌ مقيدٌ بمكة(٢). فليس القصد منه منه الإعلام بمضمونه، ولكن مشاعر الحزن والحسرة وقد استبدت بالشاعر لرحيل محبوبته عنه، تبدو من وراء هذه الكلمات المهمومة.

وقول ابن الرومي في مرثيته لولده:

طَوَاهُ الرَّدَى عنِّي فأَضْحَى مَزَارُهُ ... بعيدًا على قُربٍ قريبًا على بُعدِ(٣)

فلا جرم أنه لم يرد الإخبار، وإنما أراد أن ينبئ عن قلب مكروب أثقلته وطأة الحزن فراح يبث من وراء كلماته هذا الحزن وهذه الفجيعة بموت ولده.

وقول الشاعر:

إلهي عَبْدُكَ العَاصي أتَاكاَ ... مُقِرّاً بالذنُوبِ وقدْ دَعاكَا

فإنْ تغفرْ فأنتَ لِذاكَ أهلٌ ... وَإنْ تطرُدْ فمنْ يَرْحَمْ سواكا(٤)

فهو لم يقصد من الخبر هنا دلالته الأصلية، وإنما ما وراء ذلك من الاستعطاف والاسترحام والتذلل لله سبحانه، استنزالا لرحمته وعفوه وغفرانه.

---

(١) شرح ديوان الحماسة، ص ٣٦، ٤٠، ومعاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عبد الرحيم العباسي ١/١٢٠، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت.

(٢) شرح ديوان الحماسة، ص ٤١.

(٣) ديوان ابن الرومي ١/٤٠٠، شرح: أ. أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت- ط: الثالثة، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

(٤) البيتان لإبراهيم بن أدهم، في بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي ١/١١٣، مكتبة الآداب. ط: الثانية عشرة ١٤٢١هـ -٢٠٠٠م، وبلا نسبة في الإيضاح ٢/٨٥، ومعاهد التنصيص ١/١٧٠.

والخبر في هذا كله قد خرج عن النمطية الأصلية في استعماله من الفائدة أو لازمها، متخطيا هذا الأصل؛ ليكشف للمتلقي عن هذه الظلال والإيحاءات المستكنة في التركيب؛ استجابة للحالة النفسية والشعورية التي أثرت في تشكيل بنية الخطاب وصبغته بالصبغة الفنية والجمالية.

ومن مظاهر العدول في هذا الباب: تنزيل العالم بفائدة الخبر ولازمها منزلة الجاهل؛ لعدم جريه على موجب العلم؛ فيلقى إليه الخبر كما يلقى إلى الجاهل بأحدهما. كما يقال للعالم التارك للصلاة:" الصلاة واجبة "، إيماء إلى أنه لا يتصور تركها إلا من الجاهل بالوجوب، ولأن موجب العلم العمل، فلما ترك العمل فكأنه جاهل بموجبه ومقتضاه، ولذا عدل في خطابه إلى الخلو من التوكيد تنزيلا له منزلة الجاهل الخالي الذهن، تعييرا له وتوبيخا(١) .

قال صاحب المفتاح: وإن شئت فعليك بكلام رب العزة:﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[البقرة:١٠٢]، كيف تجد صدره يصف أهل الكتاب بالعلم على سبيل التوكيد القسمي وآخره ينفيه عنهم حيث لم يعملوا بعلمهم؟(٢)

والآية من تنزيل العالم بالشيء منزلة الجاهل؛ لعدم جريه على موجَب العلم، فإن من لا يجري على موجَب علمه هو والجاهل سواء، وفيه من التوبيخ والتعيير مالا يخفى(٣).

وأوضح العلامة الدسوقي أن العلم الواقع بعد لو منفي بمقتضاها لأنها حرف امتناع لامتناع ، وقد أثبت لهم العلم في صدر الآية، لأنهم لما لم يعملوا بمقتضى هذا العلم – حيث اختاروا كتاب السحر على كتاب الله تعالى وهو التوراة – نزل ذلك العلم منزلة عدمه فصاروا بمنزلة الجاهلين فإثبات العلم لهم

---

(١) ينظر: الإيضاح ١/ ٦٨، وشروح التلخيص ١/١٩٩-٢٠١، والمطول، ص ٤٦.
(٢) مفتاح العلوم، ص ١٧٢.
(٣) ينظر: الإيضاح ١/٦٨، وشروح التلخيص١/١٩٩، ٢٠٠، والمطول، ص ٤٦.

أولا هو الموافق للواقع ونفيه عنهم ثانيا مظهر لتنزيلهم منزلة الجاهلين لعدم جريهم على موجب علمهم(١).

ومنه قول الفرزدق يمدح زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما، ويعرّض بهشام بن عبد الملك، لما أظهر من تجاهله لعلي إذ رأى الناس يحتفون به في الحرم ويفسحون له ليستلم الحجر قائلا من هذا؟ فقال الفرزدق:

هَذَا الَّذِي تعرفُ الْبَطْحَاءُ وطأتَهُ ... وَالْبَيْتُ يعرفُهُ والحلُّ والحَرَمُ

هَذَا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلِّهِمُ ...هَذَا التقيّ النقيُّ الطاهرُ الْعلمُ

هذا ابنُ فاطمةَ إن كنتَ جاهِلَهُ ... بجدِّه أنبيـَاءُ اللهِ قد خُتِمُوا

وليس قولُكَ مَنْ هذا بِضَائِرِهِ ... العُرْبُ تعرِفُ منْ أنْكَرْتَ والعجمُ(٢)

فساق الكلام خاليا من التوكيد عدولا عن الأصل؛ تنزيلا لهشام بن عبد الملك منزلة الجاهل، توبيخا له وتبكيتا.

وهذه الأبيات– كما يقول العلامة أبو موسى– لها قوتها وتأثيرها، واسم الإشارة في كل موقع من مواقعه يميز المشار إليه أكمل تمييز لتضاف إليه هذه الأوصاف العظام، ويزيد الإشارة هنا قوة أن هشامًا يتجاهله، فكأن الشاعر يعارض هذا التجاهل بهذا الفيض من الإشارات التي تؤكد ذيوع مناقبه، ومعالم مآثره(٣).

ومنه تنزيل وجود الشيء منزلة عدمه، كقوله تعالى:﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧]، يعنى أن الرمية التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة، لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمى البشر، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم، فأثبت الرمية لرسول الله ﷺ لأن صورتها وجدت منه، ونفاها عنه لأن أثرها الذي لا تطيقه البشر فعل الله(٤) ﷻ.

---

(١) حاشية الدسوقي ٢٠١/١.

(٢) ديوان الفرزدق ١٧٨/٢، دار صادر بيروت، وزهر الآداب وثمر الألباب، لإبراهيم بن علي الأنصاري القيرواني ١٠٣/١، ١٠٤، دار الجيل، بيروت.

(٣) خصائص التراكيب، ص ٢٠٢.

(٤) الكشاف ٢٠٧/٢.

ويوضح ذلك السبكي بقوله: " نزل رميه ﷺ المشركين بقبضة الحصى يوم بدر بما ترتب عليه من الأمر الغريب وهو وقوع الحصى في عين كل واحد من الكفرة، منزلة عدمه؛ لأنه بالنسبة لما ترتب عليه كالعدم، إعلاما بأنه من خصائص القادر المختار، تذكيرا للنعمة وتنبيها على الخصوصية الكائنة بالقدرة وإشارة إلى أن هذا الواقع بمحض القدرة سببه بالنسبة إليه كالعدم"(١). وأما إثبات الرمي له ثانيا في قوله: إذ رميت، فنظرا للظاهر، كما يقول العلامة الدسوقي(٢). فظاهر الحال أنه ﷺ رمى، ولكن ما ترتب على هذا الرمي ليس في مقدور البشر لأنه من صنع الله تعالى، ولذا عدل عن إثباته للنبي ﷺ .

ثانيا: أضرب الخبر

يَنْظُر هذا الموضوع إلى طبيعة المتلقي ومعرفة أحواله وتشخيص نفسيته من حيث القبول أو الإنكار، وعليه يجري الأسلوب من حيث التوكيد وعدمه وفق حالة المخاطب.

ولذا قال البلاغيون: إذا كان المخاطب خالي الذهن من الحكم بأحد طرفي الخبر على الآخر والتردد فيه، استغنى عن المؤكدات كقولك: " جاء زيد "، فيتمكن في ذهنه، لمصادفته إياه خاليًا.

وإن كان مترددًا في إسناد أحد الطرفين إلى الآخر، حسن تقويته بمؤكد، كقولك: " إن زيدًا عارف ".

وإن كان منكرا له حاكمًا بخلافه وجب توكيده بحسب الإنكار، قوة وضعفا، فتقول:" إني صادق " لمن ينكر صدقك ولا يبالغ في إنكاره، و: " إني لصادق " لمن يبالغ في إنكاره (٣).

وخير شاهد يصور هذا الأصل النفسي الدقيق في بناء الأسلوب، هذه الآية الكريمة التي تعرض لنا حوار المرسلين مع أصحاب القرية، قال

(١) مواهب الفتاح ١/٢٠٠، ٢٠١، وينظر: حاشية الدسوقي ١/٢٠٢.
(٢) ينظر: حاشية الدسوقي ١/٢٠٢.
(٣) ينظر: الإيضاح ١/ ٦٩، ٧٠، والمطول، ص ٤٧، ٤٨.

سبحانه:﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ* إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ* قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ* قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[يس:١٣-١٦] ترى خطاب الرسل–عليهم السلام– متدرجا في التأكيد وفقا لحالة الإنكار التي عليها القوم، فجاء مؤكدا في المرة الأولى بإنّ واسمية الجملة ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾، لعدم مبالغة المرسل إليهم في الإنكار، كما يدل عليه قوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ ، وفي المرة الثانية زيد في التأكيد بالقسم المتضمن لجملة ﴿رَبُّنَا يَعْلَم﴾ وإنّ واللام واسمية الجملة؛ لمبالغة المخاطبين في الإنكار، حيث قالوا: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أي لستم رسلا، لأنهم يعتقدون أن الرسول لا يكون بشرا، وهو كما ترى أسلوب مؤكد بالنفي والاستثناء، ثم أردفوا ذلك بقولهم: ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾، وهذا تأكيد ثان لنفي الرسالة عنهم بصورة أبلغ؛ لأنهم في هذه الجملة الثانية ينكرون أن الله أنزل شيئا عليهم وعلى غيرهم، ثم أردفوا ذلك بقولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾، فوسموا رسل الله المكرمين بالكذب بهذا الأسلوب المؤكد، فرد الرسل الكرام عليهم بعد هذا العناد، والإنكار والتطاول بقولهم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ بهذا الأسلوب الموثق المؤكد(١).

ومراعاة هذه الأحوال الثلاثة في صياغة الجملة أمر يجري على الأصل، ويوافق ما يقتضيه ظاهر حال المخاطب، والبلاغيون يسمون الضرب الأول ابتدائيا، والثاني طلبيا، والثالث إنكاريا(٢).

(١) ينظر: مختصر المعاني، ومواهب الفتاح ٢٠٦/١، ٢٠٧، والمطول، ص ٤٨، ٤٩، وخصائص التراكيب ، ص ٨١، ٨٢.

(٢) ينظر: شروح التلخيص ٢٠٧/١، ٢٠٨، وخصائص التراكيب، ص ٨٤.

وقد يقتضي الحال العدول عن هذا الأصل إلى خلافه لاعتبارات يلحظها المتكلم في المخاطب، فينزل حاله منزلة حال أخرى، وعليه يتشكل الخطاب وفقا لذلك.

وهذا العدول يضفي ظلالا وارفة على المعنى ويكسبه قيمة فنية؛ لربطه بين الأسلوب وطبيعة المتلقي ومراعاة حالته النفسية والشعورية.

فمن مظاهر ذلك: تنزيل غير السائل (خالي الذهن) منزلة السائل (المتردد) إذا قدم إليه ما يُلَوِّح له بحكم الخبر، فيستشرف له استشراف المتردد الطالب(١).

قال السعد: والمراد أن الكلام المقدم يشير إشارة ما إلى جنس الخبر، حتى أن النفس اليقظى والفهم المتسارع يكاد يتردد فيه ويطلبه، لا أنه يشير إلى حقيقة الخبر وخصوصيته(٢).

فمن ذلك أن تكون الجملة أو الجمل السابقة متضمنة إشارات، أو إيماءات تثير في النفس المتلقية تساؤلا، فتسعفها الجملة الثانية بما يزيل التردد، ويجيب عن هذا الهمس، فيدخل قدر من التوكيد في بناء العبارة ليواجه هذا التردد، ومن ذلك الجمل المؤكدة في الكلام الفصيح والواقعة عقب الأمر والنهي، أو الإرشاد والتوجيه(٣).

وهذا الضرب كثير في التنزيل جدا – كما يقول عبد القاهر – من ذلك قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[الحج:١]، وقولُه عزَّ اسمه:﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[لقمان:١٧]، وقوله سبحانه:﴿خُذْ مِنْ

(١) الإيضاح ١/ ٧٢، وشروح التلخيص ١/٢٠٩-٢١١، والمطول، ص ٤٩.
(٢) المطول، ص ٥٠.
(٣) خصائص التراكيب، ص٨٤، وينظر: علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني. د. بسيوني عبد الفتاح فيود ١/ ٣٩ . مؤسسة المختار. القاهرة. ط: الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣]، ومن أبْيَن ذلك قوله تعالى:﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾[هود:٣٧، والمؤمنون:٢٧] وقد يتكرَّرَ في الآيةِ الواحدةِ كقوله عزَّ اسمُه:﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[يوسف:٥٣]، وهي على الجملة من الكثرة بحيث لا يدركها الإحصاء(١).

وعلة ذلك – فيما أرى– أن الأمر أو النهي إذا تصدر الكلام تطلعت نفس السامع إلى معرفة سببه، وتشوقت إلى بيان علته، ولذا يفصل السبب للاستئناف البياني، إجابة عما أثير في النفس، ويأتي مؤكدا بإنَّ؛ تقريرا له في النفس، وحثا على امتثاله " على النهج الأبلغ في الجمل التي تعلل كلاماً سابقاً ، وكأنها تجيب عن سؤال مقدر فيه ، إذ تكون من قبيل الخبر الطلبي على سبيل تنزيل غير السائل منزلة السائل ، لتقدم ما يستدعى سؤالاً "(٢).

وقال الشيخ عبد القاهر: " إنّ " في هذه المقامات لتصحيح ما قبلها والاحتجاج له وبيان وجه الفائدة فيه وتغني غَناء الفاء(٣).

تأمل قوله تعالى مخاطبا نبيه نوحا عليه السلام: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ* وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود:٣٦، ٣٧]، تجد أن قوله: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يهيئ نفسه عليه السلام لأن تظن أنهم مغرقون، أي لا تدْعُني في شأن قومك ولا تشفع في دفع العذاب عنهم، فهذا كلام يلوح بالخبر مع ما سبق من قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ فصار المقام مقام أن يتردد المخاطب في أنهم هل صاروا محكوما عليهم بالإغراق أم لا ؟ فنزل منزلة الطالب المتردد، ومن ثم عدل إلى توكيد

(١) دلائل الإعجاز، ص ٣١٦، ٣١٧.

(٢) ينظر: خصائص النظم القرآنى فى قصة إبراهيم عليه السلام ، د. الشحات محمد أبو ستيت، ص ٢٨، مطبعة الأمانة، القاهرة، ط. الأولى، ١٤١٢هـ – ١٩٩١م .

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز، ص٣٢٣ .

الخبر، فقيل: ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُون﴾ مؤكدا بإنّ والجملة الاسمية، أي محكوما عليهم بالإغراق، إجابة لما أثير في نفسه عليه السلام(١).

وفي قوله تعالى:﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِن النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوء﴾[يوسف:٥٣]، عدول إلى توكيد الخبر لتضمنه شيئا غريبا هو اتهام المتكلم نفسه ونفي التبرئة عنها، والمتكلم يوسف عليه السلام، أو امرأة العزيز على خلاف بين المفسرين(٢)، فعلى أنه يوسف عليه السلام، يكون نفي التبرئة عن نفسه أمرا غريبا يثير في النفس تساؤلا واستشرافا لمعرفة الخبر، إذ كيف لا يبرئ نفسه وهو التقي النقي؟ ولذا جاء الخبر مؤكدا:﴿إن النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوء﴾ تنزيلا للمخاطب خالي الذهن منزلة السائل المتردد. وعلى أن المتكلم امرأة العزيز، فلا يخلو نفي التبرئة عن نفسها من إثارة التساؤل في نفس المخاطب، لأن اتهام النفس ونفي التبرئة عنها من الأمور المستبعدة (٣).

قال السيد الشريف: أكد بتأكيدين وكان يكفيه أحدهما، فلعل أحدهما لتقديم ذلك الملوّح، والآخر لكون هذا الخبر في نفسه مما لا يقبله الوهم بل يتردد فيه أو ينكره، سواء حمل النفس على العموم أو على العهد، أما على تقدير العموم فلأن الوهم يستبعد ذلك الحكم الكلي وأن لا يخرج عليه واحدة من النفوس، وأما على تقدير العهد فلأنه عليه السلام صديق طاهر النفس وهذا مما يوقع الوهم في إنكار الحكم أو التردد فيه(٤).

---

(١) ينظر: مختصر المعاني، ومواهب الفتاح ١ /٢١١، والمطول، ص٤٩، ٥٠، وعلم المعاني، د. بسيوني فيود ١/٤٠.

(٢) يراجع: الكشاف، للزمخشري ٢/٤٨٠، ٤٨١، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٦/٢٨٨، ٢٨٩، ت، صدقي محمد جميل، دار الفكر ، بيروت، ط:١٤٢٠هـ، وتفسير أبي السعود ٤/٢٨٥، ٢٨٦، دار إحياء التراث العربي، بيروت، وروح المعاني للألوسي ١٣/ ٢، ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) ينظر: علم المعاني د. بسيوني فيود ١/ ٤١.

(٤) حاشية السيد الشريف الجرجاني على المطول، ص ٥٠.

ومنه قول القائل:

فَغَنِّها وهي لك الفِداءُ ... إنّ غِنَاءَ الإبل الحُداءُ(١)

لما قال غنّها ليشتد سيرُها كان ذلك تلويحا بحكم الخبر، وصار السامع مترددا في غنائها أهو الحُداء أم غيرُه؟ فجاء الخبر مؤكدا: " إنّ غناء الإبل الحُداء " عدولا عن مقتضى الظاهر بتنزيل خالي الذهن منزلة المتردد السائل، ليزيل ما أثير في نفسه(٢).

ومن المشهور في هذا الباب قصة أبي عمرو بن العلاء، وخلف الأحمر مع بشار في بيته المشهور:

بَكِّرا صاحِبَيَّ قبل الهَجِيرِ... إنَّ ذاكَ النَّجاحَ في التَّبكيرِ(٣)

فقد قال له خلف لما سمع القصيدة:" لو قلت يا أبا معاذ مكان " إنّ ذاك النجاح ": " بكرا فالنجاح "؛ كان أحسن، فقال بشار: إنما بنيتها أعرابية وحشية، فقلت: إنّ ذاك النجاح، كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت: بكرا فالنجاح، كان هذا من كلام المولَّدين، ولا يشبه ذلك الكلام، ولا يدخل في معنى القصيدة، فقام خلف فقبل بين عينيه؛ وما ذلك إلا للطف المعنى وخفائه(٤).

---

(١) البيت بلا نسبة كما في جمهرة اللغة لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد ٢/ ٩٦٤، ١٠٤٧، ت: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين بيروت، ط: الأولى ١٩٨٧م، ودلائل الإعجاز، ص ٢٧٣، ٣١٦.

(٢) ينظر: من بلاغة النظم العربي دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. عبد العزيز عرفة ١/ ٨٧، عالم الكتب، بيروت، ط الثانية ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م، وعلم المعاني د. فيود ١/ ٤١.

(٣) ديوان بشار بن برد ١٨٤/٣، شرح وتعليق: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر، ودلائل الإعجاز، ص ٢٧٢.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز، ص ٢٧٢، ٢٧٣، والإيضاح ٧٣/١، ٧٤.

فقد أدرك بشار أن التوكيد في الأسلوب يجعله أشبه بالفطرة الأصيلة الصادقة، وذلك لأنه لما أمر بالتبكير في صدر البيت أحس أن السامع صار في حاجة إلى أن يعرف علة هذا الأمر بصورة مؤكدة؛ ليكون ذلك أدعى إلى قبوله فأكد، ولو قال: فالنجاح، هكذا كلاما مرسلا من غير توكيد، لم تكن الصياغة أشبه بالفطرة الواعية لأسرار النفس، عبارة بشار أفضت إلى اختلاجة النفس المتلقية واستشفت حاجتها إلى التوكيد، وجاءت على مذهب الكلام الأول، من تنزيل غير السائل منزلة السائل المتردد(١). وأيضا لأن توكيد الجملة الدافعة إلى امتثال الأمر والحاثة عليه والتي تقوم مقام السبب والعلة، أدخل في بلاغة العبارة وقوة إبانتها، ولذلك رفض أن يقول:" بكرا فالنجاح في التبكير" كما اقترح خلف. ولأن عبارة خلف التي اقترحها تخلو من كلمة " ذاك " وهي تحسن هنا لأنها تشير إلى نجاح بعيد الغاية(٢).

وقد أشار الشيخ عبد القاهر إلى دقة التعبير بـ " إنّ " هنا وقوتها في ربط الجملتين بحيث لا يستقيم الكلام بدونها ولا يصلح غيرها مكانها، فهي " تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمرا عجيبا، فأنت ترى الكلام بها مستأنفا غير مستأنف، ومقطوعا موصولا معا... وترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها وتأتلف معه وتتَّحد به، حتى كأنَّ الكلامين قد أُفرِغا إفْرَاغا واحدا، وكأَن أحدَهُما قد سُبِك في الآخَرِ... حتى إذا جئتَ إلى "إنَّ" فأسقطتَها، رأيت الثاني منهما قد نَبَا عن الأولِ، وتجافى معناه عن معناه، ورأيْتَه لا يتَّصل به ولا يكونُ منه بسبيل، حتى تجيءَ "بالفاءِ" فتقول: "بكّرا صاحبيَّ قبل الهجير، فذاكَ النجاحُ في التبكير"، و "غنِّها وهي لك الفداءُ، فغناءُ الإبلِ الحُداءُ"، ثم لا ترَى

(١) خصائص التراكيب، ص ٨٥، وعلم المعاني د. فيود ١/ ٤١ ،٤٢.

(٢) ينظر: دلالات التراكيب دراسة بلاغية، د. محمد أبو موسى، ص ٢٥٦، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: الرابعة ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

"الفاء" تعيد الجملتين إلى ما كانتا عليه من الأُلفة، ولا تردُّ عليك الذي كنت تجد "بإنَّ" من المعنى(١).

ومقتضى كلام القوم في هذه الأساليب ونحوها، استحسان التأكيد في خطاب المتردد ولو كان موافقا لظنه(٢)، لكن الشيخ عبد القاهر يرى أنه إنما يحسن التأكيد إذا كان للسائل ظن على خلاف الجواب(٣).

والواقع أن النفس حين تتردد تصير في حاجة إلى قدر من التوثيق، وإن كان الحكم على وفق ظنها؛ لأن ما تظنه وتميل إليه هي أيضا في حاجة إلى توكيده، وهذا ملحظ نفسي دقيق ... ولهذا رد البلاغيون قول عبد القاهر، إن الجواب يؤكد إذا وقع على خلاف ظن المخاطب؛ لأن مجرد التردد يحتاج إلى حسم بالتوكيد(٤).

ومن مظاهر العدول: تنزيل غير المنكر منزلة المنكر(٥)، إذا ظهر عليه شيء من أمارات الإنكار، فيخاطب بأسلوب التوكيد في الأمر الذي لا ينكره، كقول حجل بن نضلة:

جاء شقيقٌ عارضاً رُمحَهُ ... إنّ بني عمكَ فيهم رماح(٦)

فإن مجيئه هكذا مُدِلاً بنفسه وبشجاعته، قد وضع رمحه عَرْضًا، دليل على إعجاب شديد، واعتقاد منه أنه لا يقوم له من بني عمه أحد، كأنهم كلهم عزل

---

(١) يراجع: دلائل الإعجاز، ص ٢٧٣، ٢٧٤، ٣١٦.

(٢) ينظر: شروح التلخيص ٢٠٥/١، والمطول، ص ٤٧.

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز، ص ٣٢٥، ٣٢٦.

(٤) ينظر: خصائص التراكيب، ص ٨١، ٨٦، ٨٧.

(٥) غير المنكر: يشمل خالي الذهن، والسائل، والعالم، وإن كان المثال من تنزيل العالم منزلة المنكر. وفائدة تنزيل السائل منزلة المنكر مع أنه يؤكد له من غير تنزيل؛ زيادة التأكيد مبالغة في توكيد الخبر.[ينظر: حاشية الدسوقي على المختصر ٢١٢/١، وحاشية السيد على المطول، ص ٥٠، وبغية الإيضاح ٣٧/١]

(٦) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ص ٤١٣، ودلائل الإعجاز، ص ٣٢٦، ومعاهد التنصيص ٧٢/١.

ليس مع أحد منهم رمح، فنزل منزلة المنكر، وخوطب خطاب التفات من الغيبة إلى الخطاب بقوله: " إن بني عمك .." مؤكدا بـ" إنَّ "، وفي البيت تهكم واستهزاء بشقيق، كأنه يرميه بالضعف والجبن بحيث لو علم فيهم رماحا لما التفت لفت الكفاح ولم تقو يده على حمل السلاح(١).

ومثله قوله تعالى:﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾[المؤمنون:١٥]، حيث خاطبهم بالتوكيد في الأمر الذي لا ينكر عدولا عن الأصل بتنزيلهم منزلة المنكر، ويوضح ذلك القزويني بقوله:" أكد إثبات الموت تأكيدين وإن كان مما لا ينكر لتنزيل المخاطبين منزلة من يبالغ في إنكار الموت لتماديهم في الغفلة والإعراض عن العمل لما بعده، ولهذا قيل "ميتون" دون "تموتون"(٢)، وهو يعضد التوكيد لإفادة الاسمية الثبوت والدوام.

ومنه قوله تعالى:﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾[الحج:٧]، فإتيان الساعة حقيقة غير منكرة، ولكن الموقف العملي للمسلمين من هذه الحقيقة كأنه إنكار لها؛ لأنهم يتصرفون تصرف من لا يؤمن بها(٣)، فألقي الخبر إليهم مؤكدا تنزيلا لهم منزلة المنكر .

ومن مظاهر العدول أيضا: تنزيل المنكر منزلة غير المنكر(٤)، إذا كان معه ما إن تأمله ارتدع عن الإنكار، كما يقال لمنكر الإسلام:" الإسلام حق"،

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز، ص ٣٢٦، وشروح التلخيص ١/ ٢١٢ – ٢١٤، والمطول، ص ٥٠.

(٢) الإيضاح ٧٦/١.

(٣) خصائص التراكيب، ص ٩٠.

(٤) المراد بغير المنكر: خالي الذهن من الحكم فقط، إذ لا فائدة لتنزيل المنكر منزلة المتردد، وقيل: تظهر فائدته في قلة التأكيد بعد أن كان كثيرا ، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٦] [ينظر: مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي٢١٥/١، وبغية الإيضاح ٣٨/١].

وعليه قوله تعالى في حق القرآن:﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[البقرة:٢][١]. فجاء الخبر خاليا من التوكيد لعدم الاعتداد بإنكار المنكرين، وأنهم لو أنصفوا وتأملوا ما بين أيديهم من الأدلة لعدلوا عن هذا الإنكار، فحقيقة الإسلام لها دلائلها الواضحة، والقرآن ليس بمظنة للريب ولا ينبغي أن يرتاب فيه، وهذا مما ينكره كثير، لكن نزل إنكارهم منزلة عدمه[٢].

الإنكار القائم في نفس المخاطب- كما يقول أبو موسى- لم يلتفت إليه الأسلوب ولم يعبأ به ... وهذا فن دقيق له أثره الغالب في النفس حين تجد الكلام الذي يواجه الرفض والجحود خاليا من الاحتفال والتوكيد، خافت النبرة، هامسا بالحقيقة في غير جلجلة وضجيج، وتجد هذا في كتاب الله كثيرا جدا[٣].

تأمل قوله تعالى يخاطب المؤمنين والمنكرين:﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[غافر:٢]، وقوله:﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[الحديد:٥]، وقوله:﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾[محمد:٢]، تجد أن الآيات تقرر حقائق كبرى ولكنها مع ذلك لم تعبأ بإنكار الجاحدين وتكذيبهم، بل سيقت بهذا الهدوء الواثق الحكيم.

ومثله قوله تعالى:﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:١٦]، " أكد إثبات البعث تأكيدا واحدا وإن كان مما ينكر؛ لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديرًا بأن لا ينكر، بل إما أن يعترف به أو يتردد فيه، فنزل المخاطبون منزلة المترددين، تنبيهًا لهم على ظهور أدلته، وحثًّا لهم على النظر فيها، ولهذا جاء تبعثون على الأصل"[٤]، أي على الفعلية دون الاسمية؛ لأن المعنى على التجدد لا الثبوت[٥].

---

(١) الإيضاح ١/ ٧٥.
(٢) يراجع: شروح التلخيص ١/٢١٥- ٢١٧، والمطول، ص ٥٠، ٥١.
(٣) خصائص التراكيب، ص ٨٧.
(٤) الإيضاح ١/٧٦.
(٥) بغية الإيضاح ١/٣٩.

ومن نماذج ذلك في الشعر، قول زهير يمدح هرم بن سنان:

وأبيضَ فيَّاضٍ يَدَاهُ غمامةٌ ... على مُعْتَفِيهِ مَا تُغبُّ فَواضِلُهْ
بَكَّرْتُ عليـه غُدْوَةً فرأيتُـهُ ... قَعُودًا لديْهِ بالصَّريمِ عَوَاذلُهْ
يُفَدِّينَـهُ طَوْرًا وطَوْرًا يَلُمْنَهُ ... وأَعْيَا فَمَا يُدْرِينَ أين مَخَاتِلُهْ
أخي ثِقَةٍ لا يُتلِفُ الخمرُ مالَهُ ... ولكنَّهُ قد يُهْلِكُ المالَ نائِلُهْ
تَراهُ إذا ما جِئْتَـهُ مُتَـهَلِّلًا ... كأنّكَ تُعطِيهِ الذي أنت سَائِلُهْ
وذي نَسَبٍ نَاءٍ بَعيدٍ وَصَلْتَهُ ... بمالٍ وما يَدري بأنّكَ واصِلُه[1]

فهو يصف من فضائل الممدوح ما يحتاج إلى توكيد وتقرير حتى تأنس بها النفوس، ولكن الشاعر سلك طريقا آخر، فعدل إلى ترك التوكيد، فخيل بذلك أن الذين يسمعون هذه الخلائق منسوبة إليه لا يستكثرونها عليه، وذلك لما عرف عنه من أنه مظنة لكل فضيلة من فضائل السماحة والجود والكرم والحكمة، وكأن الشاعر يقول فيه ما يعرفه الناس عنه[2].

فهذه النماذجُ التي ذكرناها، وغيرُها، تكشف لنا بجلاء عن خروج الخبر عن نمطيته المتداولة، ونسقه المثالي؛ استجابة لمتطلبات العدول المرتبطة بالحالة الشعورية للمتكلم والمتلقي، والتي أثرت في تشكيل بنية الخطاب التواصلي، مما أضفى على الأسلوب قوة وتأثيرا وجمالا...

❁❁❁❁❁

(١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، لأبي الحجاج يوسف بن سليمان المعروف بالأعلم الشنتمري، ص٣٠، ٣١، الطبعة الأولى، المطبعة الحميدية المصرية ١٣٢٣هـ. [المُعتَفُون: الطالبون ما عنده، ما تُغِبُّ فواضلُه: لا تنقطع عطاياه، الصريم: جمع صريمة وهي رملة تنقطع من معظم الرمل، وقيل: الصبح، وهو أشبه بالمعنى، العواذل: اللاتي يعذلنه على إنفاق ماله، يفدينه: يقلن له فديناك، مخاتله: الأمر الذي يختلنه فيه، أي يخدعنه، النائل: العطاء].

(٢) ينظر: خصائص التراكيب، ص ٨٨ ، ٨٩ " بتصرف".

المبحث الثاني

العدول في أساليب الإنشاء

من الإمكانات الأسلوبية الإنشاء، وهو الإيجاد والإبداع، ويختلف عن الخبر في أن القصد من الخبر إفادة أن محتواه له واقع في الخارج يطابقه أو لا يطابقه، فالنسبة الكلامية فيه لها نسبة في الخارج. أما جملة الإنشاء فليس القصد منها إفادة أن محتواها يطابق نسبتها الخارجية، وإنما القصد إلى إنشائها(١). فليس فيه إلا النسبة الكلامية، وهي ما يفهم من الكلام لغة، والنسبة الواقعية، وهي المعنى القائم بالنفس، فإن تطابقتا فالمتكلم صادق في التعبير عن ذاته وخلجاته، وإلا فهو كاذب، وإن كان لا يلتفت إلى ذلك؛ لأن الإنشاء إيجاد، فالذي يتمنى أمرا، أو يستفهم عن شيء، إنما ينشيء معنى جديدا ويبدعه إبداعا(٢).

وعلى ذلك، فالكلام إن كان له نسبة خارجية تطابقه أو لا تطابقه فهو خبر، وإن لم يكن له نسبة خارجية فهو إنشاء(٣).

والإنشاء ضربان: طلب، وغير طلب، فالطلبي: ما يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب(٤)، كالأمر والنهي والاستفهام والنداء والتمني، وهو المقصود بالنظر ههنا، لكثرة الاعتبارات البلاغية وتوارد المعاني التي تجعله

---

(١) ينظر: دلالات التراكيب، ص ١٩٠.

(٢) ينظر: دراسات في علم المعاني، د. صبّاح عبيد دراز، د. الشحات محمد أبوستيت، ص ٥٠، ٥١، مطبعة الشروق بالراهبين، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

(٣) ينظر: شروح التلخيص ١/١٦٥، ١٦٦.

(٤) لامتناع تحصيل الحاصل، فإذا استعمل فيما هو حاصل وجب تأويله بما يناسب المقام، كقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[النساء:١٣٦]، وقوله:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾[الأحزاب:١] فالمعنى على طلب دوام الإيمان والتقوى للترقي في مراتب الكمال فيهما.[ينظر: شروح التلخيص ٢/٢٣٧، ٢٣٨، وبغية الإيضاح ٢/ ٢٨].

من الأساليب الغنية. أما غير الطلبي: فهو ما لا يستدعي مطلوبا، وإنما هو تصوير لذات المتكلم وما يدور في أعماقه، ولا يقصد بالنظر ههنا، قالوا: لقلة المباحث البلاغية المتعلقة به، ولأن أكثره – وهو ما عدا أفعال الترجي والقسم – في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء، كالتعجب، والمدح والذم، والقسم، وصيغ العقود ... وهذا لا يعني أنه ليس لها مواقع يلتفت إليها في البحث عن المزية لأن كل عناصر الكلام وصوره مجال لهذا البحث(١).

وسنعرض هنا لأهم أساليب الإنشاء؛ لنتبين ما فيها من لطائف بلاغية وأسرار جمالية أساسها العدول عن النمط السائد؛ لفتا لذهن المتلقي وإيقاظا لحسه الأدبي والبلاغي .. ولا يتأتى ذلك إلا بتتبع الأساليب في ضوء السياق لأنه هو الذي تستمد منه الصيغة دلالتها. ومن هذه الأساليب:

١- الأمر:

هو طلب فعل غير كف على جهة الاستعلاء(٢)، كقوله تعالى:﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[البقرة:٤٣]. وله صيغ يجري عليها أسلوبه، وهي: فعل الأمر، كقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾[البقرة:٢١]، والمضارع المقترن بلام الأمر، كقوله سبحانه:﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾[النساء:١٠٢]، واسم فعل الأمر، كقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾[المائدة:١٠٥]، والمصدر النائب عن فعل الأمر، كقوله تعالى:﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾[محمد:٤](٣).

---

(١) ينظر: شروح التلخيص ٢/٢٣٤-٢٣٧، وبغية الإيضاح ٢/ ٢٨، ودلالات التراكيب، ص ١٩٦، ١٩٧.

(٢) ينظر: شروح التلخيص ٢/٣٠٨، ٣٠٩، والمطول، ص ٢٣٩.

(٣) ينظر: الإيضاح ٣/٨١، وشروح التلخيص ٢/٣١١، ٣١٢، والأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، د. صبّاح عبيد دراز، ص ١٦، مطبعة الأمانة، القاهرة، ط: الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

ونحن في سياق البحث عن مظاهر العدول ورصد حركة الأسلوب غير معنيين بالتعرض لهذه الصيغ إلا بالقدر الذي يكشف لنا عن صور هذا العدول.

فالأصل في صيغة الأمر طلب الفعل استعلاءً، وقد تخرج عن ذلك وتستعمل في غير الطلب استعلاء، فتفيد معاني أخرى عديدةً مما يناسب المقام وقرائن الأحوال، والعدول من الأمر إلى هذه المعاني يعد عدولا من الحقيقة إلى المجاز(١).

على أن النص على معنى بلاغي واحد في الأسلوب لا يعني أكثر من وضوحه وشهرته، وإلا فإن أي أسلوب إنشائي سواء كان أمرا أم غيره يفيد مجموعة من المعاني المتقاربة المتداخلة يثيرها الأسلوب في النفس المتلقية، وهي معان ذوقية شعورية أو نفسية عقلية، ولهذا نجد اختلافا في تسمية هذا المعنى أو تعيينه بين العلماء(٢). ومن هذه المعاني التي تتولد عن أسلوب الأمر:

الإباحة: وذلك إذا استعملت صيغة الأمر في مقام توهم السامع فيه عدم جواز الجمع بين أمرين.. وتفارق الإباحة التخيير الذي له نحو هذا التركيب، بأنه لا يجوز الجمع بين الأمرين في التخيير دون الإباحة، وظاهره أن مفيد الإباحة هو الصيغة، و" أو" على هذا قرينة على ذلك، وعند النحويين أن مفيد الإباحة " أو". والتحقيق أن المستفاد من الصيغة مطلق الإذن، والمستفاد من " أو" الإذن في أحد الشيئين مثلا، وما وراء ذلك من جواز الجمع بينهما وامتناعه إنما هو بالقرائن(٣). والعَلَم في ذلك قول كُثَيِّر عزة:

---

(١) يراجع: شروح التلخيص ٣١٢/٢، ٣١٣، والمطول ٢٤٠.[استعمالها في ذلك مجاز إن قامت قرينة تمنع من إرادة معنى الأمر، وإلا فكناية][حاشية الدسوقي ٢١٢/٢، وبغية الإيضاح ٤٦/٢].

(٢) الأساليب الإنشائية، ص ١٦، ١٧.

(٣) مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي ٢/ ٣١٣، ٣١٤.

أَسِيئِي بنَا أو أَحْسِنِي لا مَلُومَةٌ ... لدَيْنا ولا مَقْلِيَّةٌ إن تَقَلَّتِ(١)

فدلالة الأمر هنا قد جاوزت بنيته اللغوية الأصلية – وَفْقا لمقتضيات العدول– إلى غاية فنية تخدم الخطاب، فالشاعر يبيح لعزة أن تسيء إليه أو تحسن فهو راض في كلتا الحالتين غاية الرضا.

يقول الخطيب: إنه من أحسن ما جاء الأمر فيه للإباحة، ووجه حسنه إظهار الرضا بوقوع الداخل تحت الأمر حتى كأنه مطلوب، أي مهما اخترت في حقي من الإساءة والإحسان فأنا راض به غاية الرضا، فعامليني بهما وانظري هل تتفاوت حالي معك في الحالين؟(٢).

والوجه الذي يقصده الخطيب هو ما في قوله " أسيئي" وما وراءه من عاطفة متمكنة صارت بها إساءتها أمرا مرغوبا فيه ومطلوبا فكل ما يصدر منها مطلوب ومحبوب(٣).

ويرتبط بالإباحة غالبا الامتنان والحث على الشكر قولا وعملا للمنعم الوهاب(٤)، كقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾[الأنعام:١٤١]، فالأمر بالأكل للإباحة، وقد جاء في معرض الامتنان وإظهار الإحسان بما خلق الله لنا وما أحل وما حرم من خير الأرض والأنعام وما هو مباح للانتفاع ووقته وحق الله تعالى للفقراء، ولذلك أتى بالفعل " كلوا " إفادة لترجيح جانب الفعل، وقيده ببدء الإثمار ليُعلم أن أول وقت الإباحة وقت إطلاع الشجر الثمر، لئلا يتوهم أنه لا يباح إلا إذا أدرك وأينع، وإباحة للمضطر وغيره أن ينتفع – بالمعروف– قبل إخراج الحق، لأن رعاية النفس

(١) ديوان كُثَيِّر عزة ، ص ٦٩، شرح: عدنان زكي درويش، دار صادر، بيروت، ط: الأولى، ١٩٩٤، وزهر الآداب ٤٠٩/٢.
(٢) الإيضاح ٨٣/٣، وشروح التلخيص ٣١٣/٢.
(٣) دلالات التراكيب، ص ٢٥٢.
(٤) الأساليب الإنشائية، د. صبّاح دراز، ص٣٣.

مقدمة على رعاية الغير، ولأن الأصل في المنافع الإباحة والإطلاق[1]. وفي العدول بالأمر عن أصله إلى الإباحة حث على الانتفاع بما أحل الله ولزوم شكره تعالى على نعمه وعطاياه.

وخطاب الرسل في قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [المؤمنون:٥١]، أفاد الأمر فيه الإباحة بدلالة المقام، وجاء النداء حكاية لرسول الله ﷺ على وجه الإجمال لما خوطب به كل رسول في عصره، وقد جاءت هذه الآية إثر حكاية إيواء عيسىعليه السلام وأمه إلى الربوة؛ إيذانا بأن إباحة الطيبات شرع قديم، وأن أمرا نودى له جميع الأنبياء ووصوا به حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه، أي وقلنا لكل رسول كل من الطيبات واعمل صالحا فعبر عن تلك الأوامر المتعددة المتعلقة بالرسل بصيغة الجمع عند الحكاية إجمالا للإيجاز، وفيه من الدلالة على بطلان ما عليه الرهابنة من رفض الطيبات ما لا يخفى. وقال الطبري: الخطاب لعيسى عليه السلام والجمع للتعظيم. وعن الحسن ومجاهد وقتادة والسدى والكلبي رحمهم الله تعالى أنه خطاب لرسول الله ﷺ وحده على دأب العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجمع وفيه إبانة لفضله وقيامه مقام الكل في حيازة كمالاتهم[2].

وقال الطاهر: الأمر بالأكل للإباحة، وإن كان الأكل أمرا جبليا للبشر إلا أن المراد به هنا لازمه وهو إعلام المكذبين بأن الأكل لا ينافي الرسالة وأن الذي أرسل الرسل أباح لهم الأكل. وتعليق من الطيبات بكسب الإباحة المستفادة من الأمر شرط أن يكون المباح من الطيبات، أي أن يكون المأكول

(١) ينظر: الكشاف ٧٢/٢، والبحر ٦٦٧/٤، ٦٦٨، وأبو السعود ١٩٢/٣، والألوسي ٣٨/٨، والأساليب الإنشائية، د. صبّاح دراز، ص٢٣.

(٢) ينظر: تفسير الطبري ٤٠/١٩، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م، والبحر ٥٦٦/٧، وأبو السعود ١٣٨/٦، والألوسي ٣٩/١٨، ٤٠.

طيبا. ويزيد في الرد على المكذبين بأن الرسل إنما يجتنبون الخبائث ولا يجتنبون ما أحل الله لهم من الطيبات(١).

وقال تعالى مخاطبا المؤمنين:﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾[البقرة:١٨٧] فالمراد من الأمر هنا الإباحة بدلالة السياق ، حيث أطلق الله تعالى لهم ما كان حظر عليهم في أول الأمر من إباحة الجماع والأكل والشرب في ليالي الصوم إلى الفجر. روي أنهم كانوا إذا صلوا العشاء الأخيرة أو رقدوا حرم عليهم الطعام والشراب والنساء(٢) . وعدل عن الإباحة إلى صيغة الأمر حثا على تناول السحور كأنه أمر مطلوب مرغوب حفاظا على قوام الإنسان(٣).

التهديد: أي التخويف بمصاحبة وعيد، كقوله تعالى:﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُم﴾ [فصلت:٤٠] أي فسترون جزاءه أمامكم، فهو يتضمن وعيدا، وإنما كان تهديدا؛ لظهور أن ليس المراد أمرهم بكل عمل شاءوا، بدلالة قرائن الأحوال(٤).

فهذا الإجراء الأسلوبي استمد دلالته من صيغة الأمر التي عدل بها عن أصلها بدلالة السياق العام للآية.. تأمل قوله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يدلك السياق على أنه ليس المراد من الأمر دلالته الوضعية، بل المراد التهديد والوعيد، الذي تفيض به الآية من بدايتها إلى منتهاها، فالإلحاد في الآيات، وأصله من ألحد إذا مال عن

---

(١) التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ٦٨/١٨، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤هـ.

(٢) ينظر: تفسير الطبري ٣/ ٤٩٣ وما بعدها، والكشاف ٢٢٩/١ وما بعدها، والبحر المحيط ٢١٠/٢.

(٣) ينظر: من بلاغة النظم العربي ٧٤/٢، وعلم المعاني، د. فيود ٦٩/٢.

(٤) ينظر: شروح التلخيص ٣١٤/٢، وروح البيان لإسماعيل حقي البروسوي ٢٦٩/٨، ط. دار الفكر، بيروت.

الاستقامة، مستعار للانصراف عنها والطعن فيها وتحريفها، أو للانحراف في تأويلها عن جهة الصحة والاستقامة، وهو منبيء عن وجه بناء الخبر وأنه لا محالة عذاب واقع بهم، وقوله تعالى: ﴿لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا﴾ كناية عن الوعيد والتهديد بمجازاتهم على الإلحاد، تذكيرا لهم بإحاطة علم الله بكل كائن، ثم نبه على كيفية الجزاء بقوله:﴿أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ وهو تفريع على الوعيد السابق، لبيان أن الوعيد بنار جهنم، وكان الظاهر أن يقابل الإلقاء في النار بدخول الجنة لكنه عدل عنه إلى ما في النظم الجليل اعتناء بشأن المؤمنين بالتنصيص على أنهم آمنون يوم القيامة من جميع المخاوف، ولذا عبر في الأول بالإلقاء الدال على القسر والقهر، وفيه بالإتيان الدال على أنه بالاختيار والرضا مع الأمن ودخول الجنة. والاستفهام تقرير مستعمل في التنبيه على تفاوت المرتبتين .. ثم توهج الأسلوب تهديدا بصيغة الأمر ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ لأنه يتجه إليهم ملتفتا التفاتة الغاضب الموعد... فطبيعة الأمر قد انبثق منها قدر هائل من التهديد، وكأنه تعالى يأمرهم بما يشاؤون من أنواع الشرور ليوقع بهم أفانين العذاب. وقوله:﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيد بالعقاب على أعمالهم على وجه الكناية(١).

فانظر كيف كان للسياق هذا الأثرُ في توجيه الأسلوب؟ وكيف انتقل النظم متدرجا في الدلالة على المراد، حتى بلغ ذروته عند صيغة الأمر لتدل على مادلت عليه؟ تعلمُ عندئذ دورَ السياق وأهميتَهُ في تحديد المراد من الخاصية البلاغية.

ومنه قوله تعالى:﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾[إبراهيم:٣٠] فقد خرج الأمر في قوله:﴿تَمَتَّعُوا﴾ عن أصله

(١) ينظر: البحر المحيط ٣٠٩/٩، وروح البيان ٢٦٨/٨، وروح المعاني ١٢٦/٢٤، ١٢٧، والتحرير والتنوير ٣٠٣/٢٤، ٣٠٤، ودلالات التراكيب، ص ٢٥٠.

من الامتثال وعدل به إلى معنى التهديد والوعيد والزجر؛ لأنه تعالى لا يأمرهم بالتمتع بما هم عليه من الشهوات التي من جملتها كفران نعمته تعالى عليهم ودعوة أتباعهم وأشياعهم إلى الكفر – كما أشارت إليه الآيات السابقة – ولكن لأنهم لما أشركوا بالله وجعلوا له أندادا ليضلوا عن سبيله وتمادوا في ضلالهم وإضلالهم؛ أمرهم بالتمتع أمر تهديد ووعيد، ولذا يقول الإمام الطبري: إن أمرهم بالتمتع في الحياة الدنيا وعيد من الله لهم، لا إباحة لهم التمتع بها، ولا أمرا على وجه العبادة، ولكن توبيخا وتهددا ووعيدا، وقد بين ذلك بقوله:﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾[1].

وفي التعبير بالأمر – كما قال الزمخشري – إيذان بأنهم لانغماسهم في التمتع بالحاضر وأنهم لا يعرفون غيره ولا يريدونه، مأمورون به، قد أمرهم آمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه ولا يملكون لأنفسهم أمرًا دونه، وهو أمر الشهوة. والمعنى: إن دمتم على ما أنتم عليه من الامتثال لأمر الشهوة فإن مصيركم إلى النار. ويجوز أن يراد الخذلان والتخلية[2].

وجاء التهديد في صورة الأمر المسند إلى رسول الله ﷺ ؛ نعيا عليهم وإيذانا بأنهم لشدة إبائهم قبول الحق وفرط انهماكهم في الباطل وعدم ارعوائهم عن ذلك بحال، أحقاء بأن يضرب عنهم صفحا ويعطف عنهم عنان العظة ويخلوا وشأنهم ولا ينهوا عنه بل يؤمروا بمباشرته؛ مبالغة في التخلية والخذلان ومسارعة إلى بيان عاقبته الوخيمة، وهي صيرورتهم إلى النار ليس إلا ، فلا بد لهم من تعاطي ما يوجب ذلك ويقتضيه من أحوالهم[3].

(١) ينظر: تفسير الطبري ١١/١٦.
(٢) الكشاف ٥٥٥/٢.
(٣) تفسير أبي السعود ٤٦/٥ (بتصرف يسير)، وينظر: روح البيان ٤١٨/٤.

ومنه قول النبي ﷺ:((إذا لم تستحِي فاصنع ما شئت))[1] ، فالأمر فيه للتهديد بدلالة السياق المفهوم من قوله: " إذا لم تستح"، فهو منبئ عن أن ما يأتي بعده مما لا ينبغي أن يكون، فضلا عن أن يؤمر به، فيفهم عدول الأمر إلى معنى التهديد والوعيد؛ إذ ليس المراد – بعد هذا– أمرهم بما شاءوا.

وهذا وجه من وجوه المعنى كما ذكر شراح الحديث رحمهم الله، قال ابن دقيق العيد: خرج بلفظ الأمر على معنى الوعيد والتهديد ولم يرد به الأمر كقوله: [اعملوا ما شئتم] فإنه وعيد؛ لأنه قد بين لهم ما يأتونه وما يتركون[2]. ونقل ابن حجر قول الخطابي: الحكمة في التعبير بلفظ الأمر دون الخبر في الحديث أن الذي يكف الإنسان عن مواقعة الشر هو الحياء فإذا تركه صار كالمأمور طبعا بارتكاب كل شر[3].

التعجيز: أي إظهار العجز، وذلك حين يقتضي الأمر فعل ما ليس في طاقة المخاطب ليظهر عجزه، والعلاقة بين الطلب والتعجيز ما بينهما من شبه التضاد، فإن التعجيز في المستحيلات والطلب في الممكنات[4]، وذلك كآيات التحدي للعرب أن يأتوا بمثل القرآن، كقوله تعالى:﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[القصص:٤٩]، وقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور:٣٤]، أو بعشر سور مثله، كقوله

(١) جزء من حديث، أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت، ٢٢٦٨/٥ (ح رقم ٦١٢٠) ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار طوق النجاة ، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٢) شرح الأربعين النووية للإمام ابن دقيق العيد ١/ ٥٦، نشر المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني ٥٢٣/١٠، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة بيروت، ١٣٧٩هـ، وينظر: الفائق في غريب الحديث والأثر للعلامة الزمخشري٣٤٠/١، ت: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط: الثانية.[ولعل الزمخشري نقله عن الخطابي أيضا].

(٤) ينظر: مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي ٣١٤/٢، ٣١٥.

سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[هود:١٣]، أو بمثل سورة منه، كقوله تعالى:﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ﴾[البقرة:٢٣]، إذ ليس المراد به أمرهم حقيقة على وجه التكليف والإلزام بالإتيان بمثله أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله، وإنما المراد إظهار عجزهم عن الإتيان، لأنهم إذا حاولوا بعد سماع صيغة الأمر ولم يمكنهم ظهر عجزهم ... فالمراد التعجيز بدلالة القرائن لإقامة الحجة عليهم(١). وذكر الباقلاني أنه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله، وقرعهم على ترك الإتيان به، طول تلك السنين ، فلم يأتوا بذلك(٢).

وسر بلاغة التعبير بالأمر في مقام التعجيز قوة التحدي والتسجيل عليهم؛ ليتعظوا ويقلعوا عما هم فيه من العناد والمكابرة(٣).

ومنه قوله تعالى:﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[لقمان:١١]، فالأمر هنا عدل به عن أصله إلى إظهار التحدي والمعاجزة(٤)، إذ ليس في وسع المشركين أن يثبتوا خلقا لأوثانهم التي يعبدونها من دون الله، وفيه إشعار بضلالهم وفساد عقيدتهم، توبيخا لهم وإظهارا للحجة عليهم. يقول الشوكاني: والإشارة بقوله هذا إلى ما ذكر في خلق السموات والأرض، والاستفهام في قوله فأروني للتقريع والتوبيخ والمعنى فأروني أي شيء خلقوا مما يحاكى خلق الله أو يقاربه، وهذا الأمر لهم لقصد التعجيز والتبكيت، ثم أضرب عن تبكيتهم بما ذكر إلى الحكم عليهم بالضلال الظاهر فقال: بل الظالمون في ضلال، فقرر ظلمهم أولا وضلالهم ثانيا، ووصف ضلالهم بالوضوح والظهور ومن كان هكذا فلا يعقل الحجة ولا

(١) ينظر: شروح التلخيص ٣١٤/٢، ٣١٥.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني، ص ١٧ وما بعدها، ت: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط: السابعة، ٢٠٠٩م.

(٣) من بلاغة النظم العربي ٢/ ٧٧، وعلم المعاني، د. فيود ٧١/٢.

(٤) مصدر عاجَز، وهو أبلغ في الدلالة على التعجيز.

يهتدي إلى الحق[١]. ويذكر الطاهر بن عاشور أن صوغ أمر التعجيز من مادة الرؤية البصرية أشد في التعجيز لاقتضائها الاقتناع منهم بأن يحضروا شيئا يدعون أن آلهتهم خلقته[٢].

ومنه قول المهلهل مخاطبا آل بكر ومعلنا شدة غضبه لقتلهم أخاه كليبا:

يا لَبَكْرٍ انشُروا لِي كُلَيْبًا ... يَا لَبكرٍ أينَ أيْنَ الفِرَارُ؟[٣]

فهو يهددهم بالويل والثبور ويطلب منهم إعادة كليب إلى الحياة، وذلك من المحال؛ لأنه ليس في مقدورهم ذلك، فالأمر هنا معدول به عن أصله للدلالة على التعجيز، وفيه إشعار بأنه لا منجى لهم ولا مهرب، وأنه آخذ بثأره منهم لا محالة[٤].

التسخير: أي جعل الشيء مسخرا منقادا لما أمر به، وجعله السبكي وكذا اليعقوبي تبديلا من حالة إلى حالة أخرى فيها مهانة ومذلة[٥]، وهو أخص من الإهانة إذ فيه يحدث المأمور به كتحويل بعض اليهود قردة في قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة:٦٥]، **والإهانة:** هي إظهار ما فيه تصغير المهان وقلة المبالاة به[٦]، كقوله سبحانه: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾[الإسراء:٥٠]، وقد جاوز الأمر دلالته الأصلية إلى التسخير والإهانة؛ إذ ليس الغرض أن يطلب منهم كونهم

(١) ينظر: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني٤/٢٣٥، دار الفكر بيروت.

(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ١٤٧.

(٣) ديوان مهلهل بن ربيعة، ص ٣٥، تقديم: طلال حرب، دار صادر بيروت، ط الأولى، ١٩٩٦م، والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ٦/ ٧٦، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤٠٤هـ.

(٤) ينظر: من بلاغة النظم العربي ٢/ ٧٧، وعلم المعاني، د. فيود ٢/ ٧١، ٧٢.

(٥) شروح التلخيص٢/٣١٧، والإيضاح ٣/٨٥.

(٦) مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي ٢/٣١٧.

قردة، أو حجارة؛ لعدم قدرتهم على ذلك، لكن في التسخير يحصل الفعل، وهو صيرورتهم قردة، ففيه دلالة على سرعة تكوينه تعالى إياهم قردة، وأنهم مسخرون له منقادون لأمره، وفي الإهانة لا يحصل، إذ لا يصيرون حجارة، وإنما الغرض إهانتهم وقلة المبالاة بهم(١).

فسر بلاغة التعبير بالأمر في مقام التسخير؛ الإيماء إلى نزول هذا الأمر بهم في أسرع لحظة وأنهم طائعون صاغرون أمامه. وفي الإهانة، إظهار التهكم بهم ليلتفتوا إلى ما هم فيه من المهانة والمذلة فيقلعوا عن عنادهم وتكبرهم(٢).

وكقوله تعالى في شأن الكافر المعذب:﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ* ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ* ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[الدخان:٤٧-٤٩]، فليس المراد من الأمر طلب ذوق العذاب، وإنما المراد إهانة الكافر وتحقيره وتبكيته، ولذا يقول المغربي: ليس المراد في " ذق" الأمر بالذوق للعذاب؛ لأن الكافر حال الخطاب بالصيغة في غُصص الذوق ومِحَنه .. بل الغرض منه إظهار أنه لا محل له في المراعاة (٣).

وتأمل إيحاءات الألفاظ الرهيبة: خذوه ـ اعتلوه، والعتل: الجر بعنف وغلظة، أو القصف كما يقصف الحطب في النار، وإيقافه وسط الجحيم أو بؤرتها، وصب العذاب على رأسه تعميما لجسمه وتعذيبه بالتهكم ذق، والذوق لا يكون إلا لمطعوم يساغ، ثم " إنك أنت العزيز الكريم "، بأسلوب القصر وضمير الفصل وهو قصر صوري يقال لمن هو في دركات العذاب لتكمل السخرية والتحقير وتصل قمتها.. والجمل تصدع الحس بما لا يحتمله الخيال(٤).

---

(١) المطول، ص ٢٤٠، ٢٤١، وينظر شروح التلخيص ٢/ ٣١٧، ٣١٨.

(٢) ينظر: من بلاغة النظم العربي ٢/ ٧٨، ٧٩.

(٣) مواهب الفتاح ٣١٨/٢.

(٤) الأساليب الإنشائية، د. صبّاح دراز، ص ٤٦، ويراجع: الكشاف ٢٨١/٤، ٢٨٢، والبحر ٤٠٨/٩، وأبو السعود ٦٥/٨.

التسوية: وتكون بين شيئين هما بحيث يتوهم أن أحدهما أرجح من الآخر(١)، كقوله تعالى في شأن المنافقين:﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾[التوبة:٥٣]،أي إنفاقكم طائعين أو مكرهين لن يتقبل منكم بسبب كفركم وخروجكم عن منهج الله، وهذا عدول من الأمر إلى التسوية، " فإنه ربما يتوهم أن الإنفاق طوعا مقبول دون الإكراه فسوى بينهما في عدم القبول. وقوله تعالى عن الكافرين في النار:﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾[الطور:١٦]، أي صبركم وعدمه في عدم النفع سواء، فإنه ربما يتوهم أن الصبر نافع للكفار في عذاب جهنم فدفع ذلك بالتسوية بين الصبر وعدمه، فليس المراد بالصيغة في المحلين الأمر بالإنفاق ولا الأمر بالصبر، بل المراد كما دلت عليه القرائن التسوية بين الأمرين"(٢).

ومنه قول المتنبي:

عِشْ عَزِيزاً أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ ... بَيْنَ طَعْنِ الْقَنَا وَخَفْقِ الْبُنُودِ(٣)

فأخرج صيغة الأمر عن أصلها؛ للدلالة على معنى التسوية بين المعيشة العزيزة، والموت الكريم في الحرب، فكلاهما سواء ولا أحد من الأمرين يرجح الآخر. وقد لفت الشاعر إلى أمر في صنعته الشعرية، فقيد العيش بالعزة في جملته الأولى لأهمية هذا القيد لبناء المعنى عليه فليس المقصود مجرد العيش وإنما العيش بعزة وشرف، ولأن الحياة بلا عزة كلا حياة، ؛ وقيد جملته الثانية بجملة الحال "وأنت كريم"؛ للدلالة على الاتصاف بهذه الصفة والكون عليها في كل حال، فهو " لا يريد أمره بالموت وإنما يحثه على الاتصاف بصفة الكرم حتى لا يموت إلا وهو متصف بها، وفي أسلوب الأمر إشارة إلى أن

(١) مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي ٣١٨/٢.
(٢) ينظر: مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي ٣١٨/٢، ٣١٩.
(٣) ديوان المتنبي، ص ٢١.

موته وهو متصف بهذه الصفة جدير بأن يطلب وأن يحرص عليه لكونه موت الكرامة والشرف والقبول"[١].

يقول العلامة الزمخشري في قوله تعالى:﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢]، معناه فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام، فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا، كقولك: لا تصل إلا وأنت خاشع، فلا تنهاه عن الصلاة، ولكن عن ترك الخشوع في حال صلاته ... لإظهار أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام موت لا خير فيه، وأنه ليس بموت السعداء، وأن من حق هذا الموت أن لا يحل فيهم. وتقول في الأمر أيضا: مت وأنت شهيد، وليس مرادك الأمر بالموت، ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات، وإنما أمرته بالموت اعتدادا منك بميتته، وإظهارا لفضلها على غيرها، وأنها حقيقة بأن يحث عليها[٢].

التمني: وهو طلب محبوب لا طماعية فيه، ولاختلافه عن الأمر الذي هو الطلب على وجه الاستعلاء؛ كانت الصيغة مجازا في التمني بعلاقة الإطلاق والتقييد، أو السببية؛ لأن طلب وجود الشيء الذي لا إمكان له سبب في تمنيه[٣]، كقول المعذبين في النار:﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾[المؤمنون:١٠٧]، فخروجهم من النار محال، ولكنهم تمنوا ذلك وصاغوه في صورة الأمر المعدول به عن حقيقته إلى معنى التمني تعبيرا عن رغبتهم القوية في إمكانية حصوله وإظهارا لشدة حرصهم على تحقق مطلوبهم وهو خلاصهم من العذاب.

وكقول امرئ القيس:

---

(١) ينظر: دلالات التراكيب، ص٢٥٥.

(٢) ينظر: الكشاف ١/١٩١، ١٩٢.

(٣) مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي ٢/٣١٩.

ألا أيّها اللّيلُ الطويلُ ألا انْجَلِي ... بصُبْحٍ، وما الإصْبَاحُ مِنكَ بأمثَلِ(١)

فالشاعر هنا يقاسي همومه وأحزانه وتستعر لواعج أشواقه، ولذا هو يعاني طول ليله وامتداده وكأنه جثم وثوى وأناخ مطاياه فلا يتحرك – كما أشارت إليه الأبيات السابقة – هكذا هو يرى ليله، ولذا تمنى أن يزول هذا الليل الذي يرى أنه لا طماعية في زواله، فصاغ أمنيته في أسلوب الأمر المعدول به عن أصله من طلب الفعل استعلاء، إظهارا لقوة الرغبة في انجلائه وإبرازا لحرصه على أن يبرح ليتخلص من تلك الهموم والأحزان ...

فليس الغرض– كما قالوا– طلب الانجلاء من الليل لأنه لا يقدر على ذلك، وليس الليل مما يؤمر به، لكنه يتمنى ذلك تخلصا عما عرض له في الليل من تباريح الجوَى ولواعج الاشتياق، ولاستطالة تلك الليلة كأنه لا يترقب انجلاءها وليس له طماعية ولا توقع فلهذا يحمل على التمني؛ ليناسب حال التشكي من الأحزان والهموم وشدتها إذ لا يناسبها إلا عدم الطماعية في انجلائه لأنها لكثرتها ولزومها الليل يعد الليل معها مما لا يزول(٢).

ومنه قول أبي العلاء المعري:

فيا موتُ زُرْ إنّ الحياةَ ذَمِيمَةٌ ... ويا نفسُ جِدّى إنّ دهرَكِ هازلُ(٣)

فهو ضائق بحياته لما يعانيه من قسوتها وتقلبها بنوائبها وشدائدها، ولذا هو يتمنى الموت الذي يراه قد تأخر، وانطبعت نفسيته اليائسة على أسلوبه، فساق أمنيته في أسلوب الأمر الذي يعكس احتفاء الشاعر بطلبه وتعلقه بأمنيته؛ تخلصا من مرارة الحياة وقسوتها.

---

(١) ديوان امرئ القيس، ص٤٩، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط: الثانية ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.

(٢) ينظر: المطول، ص٢٤١، وشروح التلخيص ٢/ ٣١٩، ٣٢٠.

(٣) شروح سِقط الزَّند ٥٣٨/٢، ت: مصطفى السقا، وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م.

الدعاء: وهو الطلب على سبيل التضرع والخضوع(١)، كقوله تعالى- حكاية عن نوح عليه السلام-:﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[نوح:٢٨]، وكقوله سبحانه -حكاية عن إبراهيم عليه السلام-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[إبراهيم:٣٥]، ودعاء المؤمنين في قوله جل ذكره:﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾[آل عمران:١٩٣]، والأمر في هذه الآيات عدل به عن أصله إلى الدعاء، إظهارا لكمال الخضوع والتضرع إلى الله سبحانه والتوسل إليه أملا في الإجابة، وفيه بيان لشدة الرغبة في تحقيق تلك الأفعال(٢).

الالتماس: وهو الطلب من المساوي على سبيل التلطف، بدون استعلاء و تضرع، كقولك لمن يساويك في الرتبة: "افعل" وكقولك: اسقني ماءً(٣).

ومنه قول كثير عزة:

خليليَّ هذا ربعُ عزّةَ فاعْقِلا ... قَلُوصَيْكُما ثمّ ابكِيا حيثُ حلّت(٤)

فهو يطلب من خليليه أن يقفا معه ساعة على منزل حبيبته " عزة " وفاء لها وقياما بحقه من البكاء فيه لخلوه من ساكنيه. وتراه عبر بصيغة الأمر في مقام الالتماس، ليوحي بأنه في نفسه ذكريات عزيزة لهذا المكان أهاجته وسيطرت عليه حتى أنسته كل شيء ما عدا رغبته في أن يعقل صاحباه ناقتيهما ثم يبكيان معه وكأن هذا الأمر مطلوب منهم جميعا(٥).

---

(١) ينظر: شروح التلخيص ٢/ ٣١٩، ٣٢٠، والمطول، ٢٤١.

(٢) ينظر: من بلاغة النظم العربي ٨٢/٢، وعلم المعاني، د. فيود ٧٤/٢ " بتصرف".

(٣) ينظر: شروح التلخيص ٣٢٠/٢.

(٤) ديوان كُثيّر عزة، ص ٦٥.

(٥) ينظر: من بلاغة النظم العربي ٨٤/٢، وعلم المعاني، د. فيود ٧٥/٢.

الاحتقار: وهو قريب من الإهانة؛ لأن كل محتقر في الاعتقاد أو في الظاهر فهو مهان، وإن كانت الإهانة بالقول أو بالفعل غالبا والاحتقار كثيرا ما يقع في الاعتقاد. كقوله تعالى- حكاية عن موسى عليه السلام-:﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ [الشعراء:٤٣]، أي أن ما جئتم به من السحر حقير بالنسبة للمعجزة(١). فهو- كما يقول أبو حيان- استطالة عليهم وعدم مبالاة بهم، وفي إبهام ما أنتم ملقون، تخسيس له وتقليل، وإعلام أنه لا شيء يلتفت إليه(٢).

فالأمر في هذا كله قد تخطى دلالته الوضعية وفقا للمقامات المختلفة وسياقاتها، إلى غايات فنية ومنبهات أدبية من شأنها لفت المتلقي وإثارة حسه الأدبي والبلاغي، وما كان له أن ينتهي إلى كل ذلك لو أنه اعتمد النمط الأوّلِي، ولم يعتمد العدول كخاصية أسلوبية لإنتاج ما سلف من معان.

٢- النهي:

هو طلب الكف عن الفعل استعلاءً، وله حرف واحد وهو "**لا** " الجازمة في قولك: لا تفعلْ(٣)، وكقوله تعالى:﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾[الإسراء: ٣١].

والنهي أيضا يخرج عن معناه الحقيقي ويعدل به عن أصله إلى معان أُخرى تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال.. يقول الخطيب: وقد يستعمل في غير طلب الكف أو الترك(٤).

ومن هذه المعاني التي تستفاد من أسلوب النهي:

التهديد: ويكون في مقام الزجر والتخويف، كقولك لعبد لا يمتثل أمرك: "لا تمتثل أمري"(٥)، فليس المراد طلب كفه عن الامتثال، بل هو مطلوب منه،

(١) ينظر: مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي ٢/ ٣١٨.
(٢) البحر المحيط ٩٢/٦.
(٣) ينظر: شروح التلخيص ٢/ ٣٢٤، والمطول ٢٤١.
(٤) الإيضاح ٣/ ٨٨، والمطول ٢٤٢.
(٥) ينظر: شروح التلخيص ٢/ ٣٢٦، والمطول ٢٤٢.

لكن كأنك تدعوه إلي ما يثير الغضب لتوقع به العقاب، فدل ذلك على أنك تهدده وتتوعده، وهذا مفهوم من جانب صيغة النهي المعدول بها عن أصلها من طلب الكف استعلاء.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم:٤٢]، فالنهي عن الحسبان ليس لطلب الكف، وإنما هو تهديد ووعيد للمشركين على بغيهم وظلمهم في الدنيا، وأنه تعالى إنما يمهلهم ويؤخر عقوبتهم استدراجا لإيقاع العذاب بهم.

وهذا التهديد مفهوم من أسلوب النهي بمعونة السياق، فهذه الآية – كما يذكر الطاهر بن عاشور– معطوفة على ما سبقها، ولها اتصال بجملة:﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾[إبراهيم:٣٠]، الذي هو وعيد للمشركين وإنذار لهم بأن لا يغتروا بسلامتهم وأمنهم تنبيها لهم على أن ذلك متاع قليل زائل، فأكد ذلك الوعيد بهذه الآية، مع إدماج تسلية الرسول– عليه الصلاة والسلام– على ما يتطاولون به من النعمة والدعة، كما دل عليه التفريع في قوله:﴿فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾[إبراهيم:٤٧]، وباعتبار ما فيه من زيادة معنى التسلية وما انضم إليه من وصف فظاعة حال المشركين يوم الحشر، حسن اقتران هذه الجملة بالعاطف ولم تفصل(١).

والخطاب هنا للعموم فيدخل فيه كل من يصح منه الخطاب، أو هو خطاب للنبي ﷺ.

قال الزمخشري: إن كان خطابا لرسول الله ﷺ ففيه وجهان، أحدهما: التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلا. والثاني: أن المراد بالنهي عن حسبانه غافلا، الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون، لا يخفى عليه منه شيء، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد. ويجوز أن يراد: ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن معاملة

(١) التحرير والتنوير ٢٤٥/١٣.

الرقيب عليهم المحاسب على النقير والقطمير، وإن كان خطابا لغيره ممن يجوز أن يحسبه غافلا، لجهله بصفاته، فلا سؤال فيه(١). وقصره أبو حيان على خطاب السامع الذي يمكن منه حسبان مثل هذا لجهله بصفات الله، لا للرسول ﷺ فإنه مستحيل ذلك في حقه (٢). ورد البهاء السبكي بأن النبي ﷺ منهي عن كل ما نهى عنه غيرَه إلا ما خص، وأما خطابُه بذلك مع القطع بأنه لا يصدر منه، فلعَلّه ليُعلم أن غيره منهي عنه من باب أولى(٣).

الدعاء: كقوله تعالى:﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وكقوله تعالى:﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[آل عمران:٨]. فالنهي هنا قد عدل به عن أصله إلى معنى الدعاء؛ إظهارا لكمال ضراعة المؤمنين وإنابتهم إلى ربهم وابتهالهم إليه تعالى أن يعفو عنهم وأن يغفر لهم ويرحمهم، وأن يثبتهم على الإيمان... فصيغة النهي هنا مستعملة في الدعاء مجازا على سبيل التخضع والتذلل، مصورة مدى إشفاقهم ورغبتهم في إجابة دعائهم.

والالتماس: وذلك إذا كان النهي من المساوي دون استعلاء وتخضع، كقولك لنظيرك: لا تفعل هذا، ومنه قوله تعالى-على لسان هارون يخاطب أخاه موسى عليهما السلام-:﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه:٩٤]، فالنهي في قوله: "لا تأخذ" ليس على حقيقته، وإنما هو للالتماس، لأنه ليس فيه استعلاء ولا إلزام. فهو يلتمس منه عدم إنزال العقوبة به، لأنه خشي إن خرج عليهم أن يتفرقوا، وسر بلاغة التعبير بالنهي في مقام الالتماس هنا؛ إظهار حرص

(١) ينظر: الكشاف ٢/٥٦٢، ٥٦٣.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٦/٤٥١.
(٣) عروس الأفراح ٢/ ٣٢٦، ٣٢٧.

هارون على ترقيق قلب أخيه، ورغبته القوية في العفو والتسامح فقد كان له عذر(١) .

ومنه قول أبي الطيب المتنبي في سيف الدولة:

فَلاَ تُبْلِغَاهُ مَا أَقُولُ فَإِنَّهُ ... شُجَاعٌ مَتَى يُذْكَرْ لَهُ الطَّعْنُ يَشْتَقِ(٢)

فهو يلتمس من صاحبيه أن يكتما عن سيف الدولة ما سمعاه في وصف شجاعته وفتكه بالأعداء، وحسن بلائه في الحروب. وقد عبر بأسلوب النهي في مقام الالتماس؛ إظهارا لشدة حرصه على كتمان هذا الأمر عن سيف الدولة، وفي ذلك تهويل بشجاعة الممدوح وتفخيمها(٣).

و**النصح والإرشاد:** وقد يأتي النهي متخطيا دلالته الوضعية إلى النصح والإرشاد، كقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١]، فالمراد من النهي إرشادهم إلى أن لا يشقوا على أنفسهم بكثرة السؤال عن كل صغيرة وكبيرة... أي " لا تكثروا مسألة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى تسألوه عن تكاليف شاقة عليكم، إن أفتاكم بها وكلفكم إياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على السؤال عنها"(٤). وجعله السبكي نهي تحريم(٥).

ومنه قول أبي العلاء:

وَلاَ تَجْلِسْ إِلَى أَهْلِ الدَّنَايَا ... فَإِنَّ خَلاَئِقَ السُّفَهَاءِ تُعْدِي(٦)

---

(١) ينظر: من بلاغة النظم العربي ٨٩/٢، ٩٠، وعلم المعاني د. فيود ٨٢/٢.

(٢) ديوان المتنبي، ص ٣٤٦، دار صادر، بدون تاريخ.

(٣) ينظر: من بلاغة النظم العربي د. عبد العزيز عرفه ٩٠/٢، وعلم المعاني د. فيود ٨٢/٢.

(٤) الكشاف ٦٨٣/١.

(٥) عروس الأفراح ٣٢٧/٢.

(٦) لزوم ما لا يلزم ـ اللزوميات لأبي العلاء المعري ١/ ٣٨٥، دار صادر بيروت.

فهو ينصح مخاطبه ويرشده إلى الابتعاد عن مجالسة السفهاء وأهل الدنايا، وعبر بصيغة النهي لبيان رغبته وحرصه في امتثال مخاطبه لإرشاده ونصحه(١).

والتوبيخ: كقول الشاعر:

لاَ تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِىَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إذا فَعَلْتَ عَظِيمُ(٢)

فهو يوجه إليه النهي على سبيل التوبيخ؛ لتظاهره بما لا يناسب حاله، لأنه ينهى الناس عن السوء ولا ينتهي عنه.

والتيئيس: كقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[التحريم :٧]، فلا معنى لنهيهم عن الاعتذار في ذلك اليوم، وإنما هو التيئيس، وإعلامهم أنه لن يُقبل منهم ولن يلتفت إليهم، فليس أمامهم إلا الجزاء على كفرهم وضلالهم(٣).

إلى غير ذلك من الأغراض التي تخرج إليها صيغة النهي وفقا لمقتضيات العدول والخروج عن النمط الشائع للأسلوب.

٣- الاستفهام:

أسلوب إنشائي له قيمته الإيحائية في بنية النص وما يضفيه من أثر جمالي على الصورة التي يظهر فيها.. وهو من" أوفر أساليب الكلام معاني

(١) من بلاغة النظم العربي ٩١/٢، ٩٢، وعلم المعاني د. فيود ٨٣/٢.

(٢) مختلف في نسبته، فقيل للمتوكل الليثي، وقيل لأبي الأسود الدؤلي، وقيل للأخطل. ينظر العقد الفريد ٢٢٩/٢، ولسان العرب لابن منظور، مادة " عظظ "، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي القلقشندي ٣٤٠/٢، دار الكتب العلمية، بيروت، وخزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر ابن عمر البغدادي ٥٦٤/٨ – ٥٦٧ ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ط: الرابعة، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

(٣) علم المعاني د. فيود ٨٥/٢.

وأوسعها تصرفا وأكثرها في مواقف الانفعال وروداً، ولذا نرى أساليبه تتوالى في مواطن التأثر وحيث يراد التأثير وتهييج الشعور للاستمالة والاقناع "[١].

وهو في الأصل طلب الفهم، وعرفه البلاغيون بأنه طلب حصول صورة الشيء في الذهن [٢].

والمطلوب معرفته نوعان: **أحدهما:** النسبة بين الشيئين– ثبوتًا أو نفيًا– ويسمى العلم بها تصديقا. فالتصديق هو إدراك النسبة بين الشيئين ثبوتا أو نفيا. تقول:" أخالد بطل"؟ فالسائل تصور خالدًا، وتصور البطل، وتصور النسبة بينهما، أي نسبة البطولة لخالد، والسؤال إنما هو عن وقوع هذه النسبة وتحققها خارجا أو عدم تحققها. ولذلك يكون الجواب في طلب التصديق بـ " نعم " أو " لا "، فإن قيل في الجواب: " نعم بطَلٌ "، أو قيل: " لا ليس بطلًا " حصل التصديق.

ثانيهما: أحد طرفي النسبة، وهما: المسند إليه، والمسند. أو أحد متعلقيهما، كالمفعول، والحال، والظرف، ونحوها، ويسمى إدراك أحدهما: تصورا. فالتصور هو إدراك المسند إليه، أو المسند، أو أحد المتعلقات. تقول: " أمحمد في الدار أم علي؟ فأنت تعلم أن في الدار أحدهما، أي أن نسبة الحلول في الدار ثابتة لأحدهما، فأنت لا تسأل عن هذه النسبة لأنك عالم بها، وإنما تطلب بالسؤال تعيين الموجود في الدار، أهو محمد أم علي؟ فإذا قيل في الجواب " محمد" أو "علي" حصل التصور[٣] .

---

(١) فن البلاغة، د. عبد القادر حسين، ص ١٣٧ دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة (بدون تاريخ).

(٢) شروح التلخيص ٢٤٦/٢، والمطول ٢٢٦.

(٣) يراجع في ذلك: شروح التلخيص ٢٤٦/٢، ٢٤٧، ومن بلاغة النظم العربي ٩٣/٢، ٩٤، والأساليب الإنشائية، د. صباح دراز، ص ١١٢.

والألفاظ الموضوعة للاستفهام هي: "**الهمزة**"، و"**هل**"، و"**ما**"، و"**من**"، و"**أي**"، و"**كم**"، و"**كيف**"، و"**أين**"، و"**أنى**"، و"**متى**"، و"**أيّان**"(١).

والهمزة لطلب التصور تارة والتصديق تارة أخرى، **وهل** لطلب التصديق فقط، وباقي الأدوات لطلب التصور فقط.

ولهذا كان لبناء جملة الاستفهام مع" **الهمزة وهل**" ضوابط واعتبارات دقيقة لا يتسع المقام لذكره(٢) ، أما بقية الأدوات فلكونها لطلب تصور أشياء محددة، فإنهم لا يلتزمون في بناء الجملة معها شيئا زائدا عن الضبط العام في النظام الإعرابي، ووجوب تصدر هذه الأدوات(٣). فلا يسأل بها إلا عن معناها ويكون الجواب عنها بتعيين المستفهم عنه.

فـ "**ما**": لما لا يعقل، كقوله تعالى:﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ [الحجر:٥٧] و" **مَنْ**" يطلب بها تصور من يعقل، كقولك: مَن عندك؟ وقوله تعالى:﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [طه: ٤٩] و" **أيْ**" لتمييز أحد المشتركين في أمر يعمهما، ففي التنزيل:﴿ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا﴾[مريم: ٧٣]. و" **كَمْ** " للسؤال عن العدد، مثل: كم درهما لك؟ وقوله تعالى:﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: ١٩] و"**كيف**" للسؤال عن الحال، نحو: كيف زيد؟ وفي التنزيل العزيز:﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. و"**أين**" يسأل بها عن المكان، كقوله تعالى:﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾[القيامة: ١٠]. و" **أنَّى**" تكون بمعنى " **كيف**"، ويجب أن يكون بعدها فعلٌ، كقوله عز من قائل: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣] وبمعنى "**من أين**"، كقوله:﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾[آل عمران: ٣٧]، أي من أين لك هذا. وأما "**متى، وأيّان**"

---

(١) الإيضاح ٣/ ٥٥.

(٢) يراجع: في ذلك: الإيضاح ٣/٥٦-٦١، وشروح التلخيص٢/٢٤٧-٢٧١، والمطول ٢٢٦-٢٣٢، ودلالات التراكيب ٢١٠-٢٢٠، ومن بلاغة النظم العربي ٢/٩٣-١٠١، وعلم المعاني د. فيود ٢/٨٨-٩٧.

(٣) دلالات التراكيب ٢٠٩، وعلم المعاني د. فيود ٢/٨٨.

فللسؤال عن الزمان، إذا قيل: "متى جئت؟ " أو "أيان جئت؟ " قيل: يوم الجمعة، أو يوم الخميس، أو شهر كذا، أو سنة كذا. وعن علي بن عيسى الربعي: أن "أيّان" تستعمل في مواضع التفخيم؛ كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾[القيامة: ٦][(١)].

هذه هي وضعية أساليب الاستفهام الأصلية، وكثيرا ما يُعدل عن هذه النمطية المتداولة، فتقفز ألفاظُه لأداء معانٍ أخرى تثري الأسلوب وتسمو به إلى وجوه جمالية وأسرار بلاغية تفاد من سياق الكلام وجو النص.

يقول الخطيب: ثم هذه الألفاظ كثيرا ما تستعمل في معانٍ غير الاستفهام بحسب ما يناسب المقام بمعونة القرائن[(٢)].

والبحث في أسرار هذه الأدوات وما تثيره في النفس حين لا يراد من الاستفهام طلب الفهم؛ هو الأدخل في باب دراسة مزايا الأسلوب والكشف عن جوانبه ذات الظلال والإيماض[(٣)] .

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن المعاني التي يثيرها الاستفهام الواحد متعددة ومتشابكة في كثير من صوره، ولا نستطيع ضبطها في شيء بعينه، ومن ثم نلجأ إلى ذكر جملة من المعاني، فنقول مثلا: إنه هنا يفيد الإنكار

---

(١) يراجع: مفتاح العلوم، ص٣١٠-٣١٣، والإيضاح ٦٢/٣-٦٧، والمطول، ص٢٣٢-٢٣٥، ودلالات التراكيب، ص ٢٠٩.

(٢) ينظر: الإيضاح ٦٨/١، والمطول، ص ٢٣٥.

(٣) دلالات التراكيب، ص ٢١٨، ٢١٩(بتصرف). **وأضاف شيخنا:** إنه ليس من المحقق أن نطلق على هذه الصور التسمية الشائعة (المعاني المجازية) لأننا لم نطمئن إلى أنها في هذه المعاني مجاز؛ لبقاء الاستفهام قويا وراء كل معنى من هذه المعاني، كما أن البلاغيين من طبقة عبد القاهر والزمخشري لم يتكلموا في وجه دلالة الاستفهام على هذه المعاني، لكن المتأخرين تكلفوا فيها أشد التكلف فشقوا على أنفسهم وعلى الناس.[ينظر: دلالات التراكيب، ص ٢١٩].

والتوبيخ والتعجب ... وهذا التعدد دليل على ثراء الأسلوب وتنوع إيحاءاته التي يصعب الإحاطة بها(١).

ونحاول في إجرائنا التطبيقي للاستفهام أن نقف على بعض أساليبه التي تعتمد العدول كخاصية أسلوبية؛ لنستكشف بعض ما فيها من دلالات وإيحاءات... ومن هذه المعاني:

الاستبطاء: وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى:﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾[البقرة:٢١٤]، فليس المقصود من الاستفهام في قوله:﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ حقيقته، بل مقصوده هنا الاستبطاء الذي دل عليه سياق الآية العام. فالآية تفيد أن المؤمنين لن يدخلوا الجنة إلا بعد الابتلاء والتمحيص، ثم تُذَكِّر بمثل الذين خلوا من قبلهم وأنهم أزعجوا إزعاجا شديدا شبيها بالزلزلة بما أصابهم من الأهوال والأفزاع، إلى الغاية التي قال الرسول ومن معه فيها: متى نصر الله؟ فلم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك؛ استطالة لزمان الشدة واستبطاء للنصر، وفي هذه الغاية دليل على تناهى الأمر في الشدة وتماديه في العظم. هذا هو أقل قدر من الإحاطة بالسياق تستطيع معه أن تتبين معنى الاستبطاء في الشاهد المذكور(٢).

فالاستفهام هنا جاء متضمنا خصيصة أسلوبية انبنت على عدوله عن الأصل إلى معنى الاستبطاء، والسياق الذي وردت فيه الآية دلل على هذا الملمح الأسلوبي في هذا الاستعمال.

ومنه قول المتنبي:

حَتَّامَ نَحنُ نُسَارِي النَّجمَ في الظُّلَمِ ... وَمَا سُراهُ على خُفٍّ ولا قَدَمِ؟(٣)

---

(١) مستفاد من دلالات التراكيب، ص ٢١٩- ٢٢١.

(٢) ينظر: الكشاف١/٢٥٦، وتفسير أبي السعود ١/٢١٥، ودلالات التراكيب، ص٢٢٢.

(٣) ديوان المتنبي، ص٤٩٥.

يقول: إلى متى نسري مع النجم في الليل وهو لا يسري على خف كالإبل ولا على قدم كالناس! فهو لا يتعب مثلنا ومثل مطايانا، فالمتنبي لا يسأل عن الزمان ولكنه يستبطئ مجيء هذا اليوم الذي يصل فيه إلى هدفه ويُحقق بغيته(١).

القيمة التعبيرية للاستفهام هنا تتمثل في عدوله عن دلالته الوضعية إلى معنى الاستبطاء، وهي دلالة ذات أثر جمالي، يكشف عن معاناة الشاعر وطول انتظاره وصولا إلى مبتغاه.

ومثله قول البهاء زهير:

أمولاي إنّي في هواكَ معذّب ... وحتّام أبقى في الغرامِ وأمكثُ(٢)

فهو لم يرد حقيقة الاستفهام، وإنما أراد ما وراءه من دلالة على الاستبطاء الذي لفت إلى تطلع الشاعر إلى مجيء يوم الخلاص مما يعانيه.

التعجب: وقد جاء هذا المعنى في قوله تعالى-حكاية عن سليمان عليه السلام-: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾[النمل:٢٠]، فإن الغرض من هذا التركيب التعجب؛ لأن الهدهد كان لا يغيب عن سليمان عليه السلام إلا بإذنه، فلما لم يبصره مكانه تعجب من حال نفسه في عدم إبصاره إياه، إذ لا معنى لاستفهام العاقل عن حال نفسه، ولذا امتنع حمل الكلام على ظاهره من السؤال عن حال نفسه عند عدم الرؤية بل حمل على التعجب مجازا(٣).

---

(١) ينظر: شرح شعر المُتَنبي لابن الإفليلي ١١/٢، ت: د. مصطفى عليَّان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٢ هـ -١٩٩٢ م، ومن بلاغة النظم العربي ١٠٤/٢، وعلم المعاني د. فيود ٢/ ١٠٣.

(٢) ديوان البهاء زهير، ص ٥٩، من قصيدة له مطلعها: يعاهدني لا خانَني ثم ينكُثُ... البيت، دار صادر بيروت ١٣٨٣هـ ١٩٦٤م.

(٣) ينظر: شروح التلخيص ٢٩١/١، ٢٩٢.

ومنه قول كثير عزة :

فوا عجبًا للقَلبِ كيف اعترافُهُ ... وللنّفس لمّا وُطِّنَتْ كيف ذلّتِ[1]

يتعجب الشاعر من صبره على ما يتحمله من آلام، ومن نفسه كيف استعذبت المذلة في العشق، والتعبير بأسلوب الاستفهام في مقام التعجب، لاستثارة العطف والشفقة على هذا المحب الولهان، وتصوير لحاله، وتعبير عن نبضات قلبه[2]. فالعدول بأسلوب الاستفهام إلى معنى التعجب قد أفصح عن مكنون الشاعر وصور ما لاقاه في سبيل هذا العشق.

التنبيه على ضلال: كقوله تعالى:﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُون﴾[التكوير:٢٦]، فليس القصد منه استعلام مذهبهم، بل التنبيه على ضلالهم وأنهم لا مذهب لهم ينجون به[3] .

ولاستنباط هذا المعنى فلابد من مراجعة سياق الآيات الكريمة:﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ*الْجَوَارِ الْكُنَّسِ*وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ* وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ*إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ* ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ* مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ*وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ*وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ*وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ*وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ* فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾[التكوير:١٥-٢٦]. فالآيات تبين مصدر القرآن وأنه نزل به جبريل عليه السلام الذي هذا وصفه، على محمد ﷺ الذي هذا وصفه، فأين تذهبون حين تقولون إنه إفك وأساطير الأولين؟ لا شك أنكم ذاهبون في ضلالات ومجاهل. وفي الآيات أسرار كالقسم بالنجوم الدالة على قدرته تعالى في أحوال ظهورها واختفائها (الخنس .. الجواري .. الكنس) وبالليل الذي يقبل بظلامه، وبالصبح الذي يبدد ذلك الظلام، وجواب القسم الذي يتمم الفائدة ويكشف عن جوانب المعنى" إنه لقول رسول كريم" ، ليوحي

(١) ديوان كثير، ص ٧١ (وروايته: فاطمأنتِ)، وزهر الآداب ٤٠٩/٢، وخزانة الأدب للبغدادي ٢٢٠/٥.

(٢) من بلاغة النظم العربي ١٠٩/٢.

(٣) مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي ٢٩٣/١.

التركيب بهذه الظلال التي تكشف عن صورة الظلام الهارب الذي بدَّدَه نورُ الصبح، وما أشبه ذلك بالكتاب الذي نزل به رسول كريم على نبي أمين؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور. وإيثار التعبير بالصاحب؛ لأن في ذكر صحبتهم له إشارة إلى أنهم أعرف الناس برجاحة عقله وزكانة قلبه. وهو حريص على إبلاغ رسالة ربه لا يضن بها عليكم، لقد وضح الأمر وانكشف الحق، فأين تذهبون؟ واضح أن الاستفهام هنا ليس تنبيها على ضلال فحسب، بل فيه بجانب ذلك إنكار ونفي وتجهيل وتشهير بغفلتهم، وتضييق عليهم وأنهم لا يجدون ما يبين وجه الصواب في تقلبهم. وفيه إغراء لهم باتباعه وأنه الحق وليس بعده إلا الضلال(١) .

وفي استعمال الاستفهام دون التصريح بكونه طريقَ ضلال مبالغتان، إحداهما: أن كونه طريق ضلال أمر واضح يكفي في العلم به مجرد الالتفات إليه. والثانية: إيهام أن المخاطب أعلم بذلك الطريق من المتكلم حيث يحتاج إلى السؤال عنه(٢).

الوعيد والتهديد: يتولد من الاستفهام معنى الوعيد، كقولك لمن يسيء الأدب:" ألم أؤدب فلانا"؟ وإنما يكون وعيدا إذا علم المخاطب المسيء للأدب ذلك التأديب، فلا يحمل كلامك على الاستفهام الذي يقتضي الجهل، بل يحمله على الوعيد بقرينة كراهيتك للإساءة المقتضية للزجر بالوعيد(٣) .

وفي العدول عن الاستفهام على الإثبات بأن يقول: أأدبت فلانا؟ إلى الاستفهام عن النفي؛ إيهام أن المخاطب اعتقد نفي التأديب فلذلك أقدم على الإساءة، وفيه من المبالغة مالا يخفى(٤) .

---

(١) دلالات التراكيب، ص ٢٢٤، وعلم المعاني، د. فيود ٢/ ١٠٥، ١٠٦(بتصرف).

(٢) حاشية السيد الشريف على المطول، ص ٢٣٥، وينظر: مواهب الفتاح، وحاشية الدسوقي ٢/ ٢٩٣.

(٣) ينظر: شروح التلخيص٢/ ٢٩٣.

(٤) حاشية السيد الشريف على المطول، ص ٢٣٦.

وكقولـه تعـالى: ﴿وَيْـلٌ يَوْمَئِـذٍ لِلْمُكَـذِّبِينَ * أَلَـمْ نُهْلِـكِ الْأَوَّلِـينَ * ثُـمَّ نُتْـبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ [المرسلات: ١٥- ١٧] لا يخفى ما يفيده الاستفهام من توعد للكفرة، وحث لهم على الإقلاع عن كفرهم والانصياع لصوت الحق حتى لا يصيبهم ما أصاب الأولين من إهلاك وتعذيب(١). وقد جاء الوعيد بصورة الاستفهام؛ ليلفت نظرهم ويبعثهم على التفكير في حالهم لعلهم يهتدون... فالاستفهام ورد داخل نسق السياق فأعطى هذا الثراء في التعبير والتكثيف في المعنى.

الأمر والحث على الفعل: كما في قوله تعالى:﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[هود: ١٤]، وقوله جل ثناؤه:﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧] وقوله عز اسمه:﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾[آل عمران: ٢٠] وقوله عز ذكره :﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[المائدة: ٩١]، فالمراد بالاستفهام في هذه الآيات الأمر، وقد جاء في صيغة الاستفهام؛ لأن في ذلك إغراءً للمخاطب وحثًا له على الاستجابة وقبول الأمر(٢).

التقرير: وله معنيان أحدهما: التحقيق والتثبيت، والآخر: حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه وإلجائه إليه (٣).

فمن الأول، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ [الضحى: ٦، ٧] وقوله:﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ١، ٢] وقوله تعالى:﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾[الفيل: ٢]، وقوله: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾[الإنسان: ١].

---

(١) علم المعاني، د. فيود ١٠٦/٢.

(٢) علم المعاني، د. فيود ١٠٦/٢.

(٣) مواهب الفتاح ٢٩٤/٢، والمطول ٢٣٦.

فالمراد بالاستفهام في هذه الآيات التقرير؛ بمعنى التحقيق والتثبيت، والتقرير بهذا المعنى – كما ذكر السبكي – يؤول إلى الخبر، فإن ما بعد الاستفهام واقع نفيا كان أم إثباتا[١] . أي: قد وجدناك يتيما.. قد شرحنا .. قد جعلنا.. قد أتى.

فعدول الاستفهام عن دلالته الأصلية إلى معنى التحقيق، صنع قيمة فنية تعبيرية تستحث على التفكر والتدبر في عظيم آلاء الله سبحانه.

ومنه قول قيس بن الأسلت:

هَلَّا سألتِ الخيلَ إذا قَلّصَت ... ما كان إبْطَائي وإسْراعي

هل أبْذُلُ المالَ على حبِّهِ ... فيهم وآتي دعْوةَ الدّاعِي[٢]

فالمراد بالاستفهام في قوله: "هل أبذل المال على حبه" التحقيق، أي أنه يبذل المال على حبه. وفضل الاستفهام على طريقة التحقيق أنه سأل غيره عن هذه الصفة ولم يزعمها، وهو يعلم أنه لن يجد بُدّا من التحقيق والتقرير، وأن يقول نعم إنه يبذل المال على حبه، وهذا أوقع في أداء المعنى وأوثق؛ لأن صاحب الصفة لا يدّعيها وإنما يقر له غيره بها[٣] . فترى العدول بأسلوب الاستفهام إلى معنى التحقيق قد أوحى بهذه الظلال التي توثق المعنى وتؤكده عند المتلقي.

ومن الثاني، وهو حمل المخاطب على الإقرار، قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾[الأنبياء: ٦٢]. ويشترط في الهمزة أن يليَها المقرّرُ به، كقولك: أضربت زيدا؟ في تقريره بالفعل، وأأنت ضربت؟ في تقريره بالفاعل، وأزيدا ضربت؟ في تقريره بالمفعول[٤] .

(١) يراجع: عروس الأفراح ٣٠٧/٢.

(٢) المفضليات، للمفضل بن محمد بن يعلى الضبي، ص ٢٨٥،٢٨٦. ت: أحمد محمد شاكر، و عبد السلام محمد هارون، دار المعارف – القاهرة ، ط: السادسة.

(٣) دلالات التراكيب، ص ٢٢٥.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز، ص١١١، ١١٣، ومفتاح العلوم، ص٣١٥، والإيضاح ٧١/٣، والمطول، ص٢٣٦.

وذهب الشيخ عبد القاهر إلى أن قوله تعالى: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ من التقرير بالفاعل، حيث قال:" لم يقولوا ذلك له –عليه السلام– وهم يريدون أن يُقر لهم بأن كسر الأصنام قد كان، ولكن أن يقر بأنه منه كان، وكيف؟ وقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم:" أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا؟"، وقال عليه السلام في الجواب:" بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا"[الأنبياء: ٦٣]، ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب: " فعلتُ أو لم أفعل"(١).

وقد يراد التقرير بما يعرفه المخاطب من مضمون الكلام إيجابا أو سلبا، لا بالحكم الذي دخلت عليه الهمزة، كقوله سبحانه: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[المائدة: ١١٦] فهو –والله أعلم– تقرير بما يعرفه عيسى –عليه السلام– من هذا الحكم، وهو أنه لم يصدر منه هذا القول، فإذا أقر –عليه السلام– بما يعلم وهو أنه ما قال ذلك، انقطعت أوهام الذين ينسبون إليه ادعاءه الألوهية وكذَّبَهم إقرارُه فقامت الحجة عليهم، فليس المراد إظهار أن غير عيسى قال هذا القول دون عيسى، بل المتبادر بيان أنه لم يقله؛ تكذيبا للمدعين(٢). وفيه توبيخ وتبكيت لمن اتخذوه وأمه إلهين من دون الله.

ومنه قوله تعالى–على لسان فرعون–:﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨] ففرعون لم يقصد الاستفهام وإنما أراد تذكير موسى–عليه السلام– بآلائه عليه في صغره من نشأته وتربيته فيهم، وحملَه على الإقرار بذلك؛ أملًا منه في أن يُقلع موسى–عليه السلام–ويكف عما جاء به من قِبل الله تعالى، ولكن أنى له ذلك وموسى رسول رب العالمين(٣) .

ومنه قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان:

أَلَسْتُم خَيرَ من رَكِبَ المطَايَا ... وأندَى العَالَمِينَ بُطونَ راحِ؟!(٤)

---

(١) دلائل الإعجاز، ص ١١٣، وينظر الإيضاح ٣/٧١.

(٢) ينظر: شروح التلخيص ٢/ ٢٩٧، ٢٩٨، والمطول، ص٢٣٧، ٢٣٨.

(٣) ينظر: من بلاغة النظم العربي ٢/١١٤، وعلم المعاني، د. فيود ٢/ ١٠٧.

(٤) ديوان جرير، ص ٧٧، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

فهو لم يرد الاستفهام، وإنما أراد تقرير ذلك الأمر من أنهم (يعني بني أمية) خير هؤلاء؛ وأن فضلهم وكرمهم لا يخفى على أحد حتى يستفهم عنه، ولو كان استفهاما ما أعطاه الخليفة مائة من الإبل برعاتها.

وحقيقته أن الهمزة فيه للإنكار دخلت على النفي، فرجع إلى معنى التقرير؛ لأن إنكار النفي نفي له، ونفي النفي إثبات، وهذا مراد من قال إن الهمزة فيه للتقرير، أي لحمل المخاطب على الإقرار بما دخله النفي، فإنكار النفي ليس مقصودا بالذات بل وسيلة للإثبات على أبلغ وجه، ولذا قيل إنه أمدح بيت قالته العرب، ولولا صراحته في تقدير المدح لما قيل ذلك(١).

فتأسس البيت على أسلوب الاستفهام الذي تخطى الأصل لإفادة معنى التقرير. وأورده بصورة الاستفهام؛ للإيحاء بأن فضلهم أمر معلوم لدى الناس، وهذا أوقع في أداء المعنى وأثبت.

الإنكار: يأتي الاستفهام وفي طياته معنى الإنكار، ويكون كالتقرير في توجه الإنكار إلى ما يلي الهمزة، فعلا كان أم فاعلا أم مفعولا (٢). ويرد على نوعين:

الأول: إنكار التوبيخ: ويكون على أمر قد وقع في الماضي، أو خيف وقوعه في المستقبل، ويكون المراد بالإنكار أنه ما كان ينبغي أن يكون في الماضي، وينبغي ألا يكون في المستقبل، والغرض منه تنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل، أو يرتدع عن فعل ما هم به (٣) .

---

(١) يراجع: مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى١/٣٦، ١٨٤، ١١٨، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي القاهرة ١٣٨١هـ، والكشاف ٣/٤٦٥، وشروح التلخيص ٢/٢٩٦، ٢٩٧.

(٢) يراجع: دلائل الإعجاز ١١٤، وما بعدها، وشروح التلخيص ٢/٢٩٦، والمطول، ص ٢٣٦، ٢٣٧.

(٣) يراجع: دلائل الإعجاز، ص ١١٩، والإيضاح ٣/٧٢، وشروح التلخيص ٢/٣٠٠، ٣٠١، والمطول، ص ٢٣٨.

فمما وقع في الماضي: قوله تعالى-على لسان يوسف عليه السلام لإخوته-: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾[يوسف:٨٩]، ليس المقصود الاستفهام، وإنما الإنكار والتوبيخ والتقريع على ما كان من الإخوة، وأنه ما كان ينبغي أن يقع منهم ما وقع في شأن يوسف وما كان من مؤامرتهم على قتله، وتعريض أخيه بنيامين للغم والثُّكْل بإفراده عنه، وإيذائهم له بأنواع الأذى(١).

فتجد في أسلوب الاستفهام المعدول به عن حقيقته، إثارةً للعواطف، وتحريكا للمشاعر، وتصويرا لما حدث ليوسف وأخيه، وأنه ما كان ينبغي أن يصدر من الإخوة في حق أخويهما.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]، الاستفهام هنا ليس استعلاما وإنما هو إنكارٌ وتوبيخ، وسلط الإنكار على الفعل الذي هو الكفر، أي ما كان ينبغي أن يقع هذا الكفر، وقد خلقك الله وسوّاك وأنعم عليك من نعمه التي تُباهي بها وتُفاخر، تعييرا له وتنديدا على استكباره وافتخاره بكثرة ماله وعياله.

وفي الكشاف وغيره: جعله كافرا بالله جاحدا لأنعمه؛ لشكه في البعث، كما يكون المكذب بالرسول ﷺ كافرا. ونبهه على أصل نشأته وإيجاده من العدم وأن ذلك دليل على البعث، ثم نبهه على تسويته إنسانا معتدلا بالغا مبلغ الرجال؛ تنبيها على كمال قدرته تعالى وأنه لا يعجزه شيء. والتعبير بالموصول" الذي خلقك"؛ للإشعار بعلية ما في حيز الصلة لإنكار الكفر والتلويح بدليل البعث(٢).

(١) ينظر في الآية: الكشاف ٢/٥٠٠، ٥٠١، وأبو السعود ١٨٣/٣، وروح البيان ٤/ ٣١٢.

(٢) ينظر: الكشاف ٧٢٢/٢، والبحر ١٧٧/٧، وأبو السعود ٥٢١/٣، ٥٢٢.

ومنه قول امرئ القيس:

أغَرّكِ مني أنّ حبّكِ قاتِلي ... وَأنّكِ مهما تأمري القلبَ يَفْعَلِ[1]

فهو لم يستفهم ولكنه ساق مراده في أسلوب الاستفهام ليثير مشاعر محبوبته، وليثبت حبه لها بوجه لطيف، فيقول: ما كان ينبغي أن يغرك حبي لك واشتياقي إليك وتعتقدين أني أصبحت متيما في هواك، أفعل ما تأمرين به.

فقوله: " أغرك مني... " إنكار لأن يكون منها ذلك وعتاب لها لم يخالطه التوبيخ هنا، إذ التوبيخ – كما يقول العلامة أبو موسى– شيء زائد على المعاتبة ولا يخلو من تأنيب ولوم، وتسمية هذا النوع بالإنكار التوبيخي، فيه تجاهل أمثال هذه الصور التي تنكر الفعل الواقع، وهي مع ذلك تحرص على الرفق والملاطفة والحب وما شابه ذلك من المشاعر الناعمة والحس الودود الذي ينبو عن التوبيخ[2] .

ومما وقع التوبيخ عليه في المستقبل: قولك لمن همَّ بالعصيان ولم يقع منه:" أتعصي ربك؟" أي هذا العصيان الذي أنت بصدد عمله لا ينبغي أن يصدر منك في الاستقبال. وكقولك لرجل يركب الخطر:" أتخرج في هذا الوقت؟ أتذهب في غير الطريق؟" وكقولك للرجل يضيع الحق:" أتنسى قديم إحسان فلان؟" فلا ريب أن الاستفهام هنا خرج للإنكار التوبيخي، بمعنى لا ينبغي أن يكون ذلك، تنبيها له حتى يرجع إلى نفسه فيرتدع عن فعل ما همَّ به[3].

وانظر إلى قوله سبحانه:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾[النساء:١٤٤]، تجد أن الإنكار موجه إلى تلك الإرادة التي لا ينبغي أن تكون، فهي غير واقعة

(١) ديوان امرئ القيس، ص٣٣.

(٢) دلالات التراكيب، ص ٢٣١.

(٣) يراجع: دلائل الإعجاز، ص ١١٧، وشروح التلخيص ٣٠١/٢.

وإنما يفترض وقوعها إذا خالفوا التوجيه الإلهي، وهو النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين(١) .

فالعدول بأسلوب الاستفهام إلى معنى الإنكار والتوبيخ، أشار إلى الارتداع المسلط عليهم إن هم هموا بموالاة غير المؤمنين، قطعا لهذه الإرادة من جذورها واجتثاثا لأصولها.

ومنه قوله تعالى:﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء:٨٨]، أي ما لكم اختلفتم في شأن قوم نافقوا نفاقا ظاهرا وتفرقتم فيه فرقتين، وما لكم لم تبتوا القول بكفرهم وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ أي ردهم في حكم المشركين كما كانوا؛ بِما كَسَبُوا من ارتدادهم ولحوقهم بالمشركين واحتيالهم على رسول الله ﷺ (٢). فالاستفهام هنا خرج عن أصله وعدل به إلى معنى الإنكار التوبيخي، بمعني لا ينبغي أن يكون ذلك.

الثاني: إنكار التكذيب: وذلك أنّ المخاطب إذا ادعى وقوع شيء في الماضي أوفي المستقبل، أو نزل منزلة المدعي له، أتي بالاستفهام الإنكاري تكذيبا له فيما ادعاه. وتأويله في الماضي " لم يكن"، وفي المضارع " لا يكون"(٣).

فمما وقع التكذيب عليه في الماضي: قوله تعالى:﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا﴾[الإسراء :٤٠]، وقوله عز وجل:﴿أَصْطَفَى البَناتِ عَلى البَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمون﴾[الصافات:١٥٣، ١٥٤]، فالإنكار هنا للفعل من أصله – كما يقول عبد القاهر –(٤) أي لم يكن

(١) ينظر: دلالات التراكيب، ص ٢٢٩.
(٢) ينظر في الآية: الكشاف ٥٥٠/١، ٥٥١، وأبو السعود ٢١٢/٢، والألوسي ١٠٧/٥، ١٠٨.
(٣) ينظر: مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي ٣٠١/٢.
(٤) ينظر دلائل الإعجاز، ص ١١٤.

منه تعالى اصطفاء ولا اتخاذ. فهذا رد على المشركين وتكذيب لهم في قولهم ما يؤدي إلى هذا الجهل العظيم. فليس المراد توبيخهم بل تكذيبهم فيما قالوا، كما نص عليه العلامة الدسوقي(١).

فحمل الاستفهام بهذا الإجراء الأسلوبي هذه الإيحاءات، ردا على افتراءاتهم ودحضا لكذبهم وإبطال زعمهم في أن الله تعالى أصفاهم بالبنين واتخذ من الملائكة بناتا له، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ومما وقع التكذيب عليه في المستقبل: قوله تعالى- حكاية لمقالة نوح عليه السلام لقومه-:﴿قَالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءاتَانِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾[هود:٢٨]، أي: أنلزمكم تلك الهداية والحجة ونكرهكم على قبولها ونقسركم على الإسلام وأنتم تكرهونها ولا تختارونها، ولا إكراه في الدين؟ والمعنى لا يكون هذا الإلزام.

وتأمل كيف تلطف عليه السلام في دعوتهم بندائهم بقومه؛ ليقبلوا بقلوبهم وأذهانهم لوعي كلامه، وليستنزل طائر نفورهم وعنادهم، فهو منهم ولا يريد بهم إلا خيرا. وعرض القضية بأسلوب استفهامي تقريري يغزو طاقات النفس ويشع على منافذ الحس، فقال: "**أرأيتم**..." تحريكا للفكر وحثا على النظر وإعمال العقل دعوة إلى الهداية والإيمان بطريق البحث والتفكير، وهذا من مناهج القرآن في دعوته إلى الإيمان.

والتعبير بالبينة، وهي البرهان الواضح، والحجة الظاهرة الدلالة؛ تعريض بأنهم لو تأملوها بعيدا عن الكراهية والعداوة لعلموا صدق دعوته. والرحمة: نعمة النبوة والرسالة، التي أنكروها عليه، وأكدهما بأنهما من عند الله، ومع هذا أعرضوا، ولذا جعلهم عميانا على سبيل الاستعارة المصرحة المصورة خفاءها أو إخفاءها بالعمى إذ لم يهتدوا لها فلم تصل إلى عقولهم(٢).

---

(١) حاشية الدسوقي ٣٠١/٢.

(٢) يراجع في الآية: الكشاف ٣٦٩/٢، والبحر ١٧٨/٥، والتحرير والتنوير ٥٠/١١- ٥٣، وشروح التلخيص ٢/ ٣٠١-٣٠٣، والمطول ٢٣٨.

وجاء الاستفهام مذيلا- كنتيجة للبيان السابق- مشتملا على قيمة تعبيرية مستمدة من عدوله عن النمط الأصلي؛ ليومض بهذه الإيحاءات من الإنكار والتكذيب، فلن يكون منه عليه السلام ولا من أتباعه هذا الإلزام بالحجة والإكراه على الهداية وهم لها كارهون.

وعليه قول امرئ القيس:

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَاب أغْوَال؟(١)

فهذا تكذيبٌ منه لإنسانٍ تهَدَّدَهُ بالقتل، وإنكارٌ أن يَقْدر على ذلك ويستطيعَه(٢). فعبر بأسلوب الاستفهام المشع على جوانب المعنى بعدوله عن أصله إلى التكذيب بهذه القوة وهذا التحدي، أي لن يكون ذلك.

وقول عمارة بن عقيل في خالد بن يزيد الشيباني:

أَأَتْرُكَ إِنْ قَلَّتْ دَراهِمُ خالدٍ ... زِيارَتَهُ؟ إِنّي إِذاً لَلَئيمُ(٣)

فليس القصد من الاستفهام الاستعلام وإنما ما استتبعه من معنى الإنكار التكذيبي مستقبلا، أي لا يكون ذلك مني.

إلى غير ذلك من المعاني التي تستنبط من أسلوب الاستفهام وتتولد عنه بمعونة السياق والمقام، وأساسها جميعا العدول الأسلوبي الذي من شأنه أن يقدح زناد الفكر ليربط بين المعنى الأصلي والمعاني الثواني.

٤- التمني:

هو طلب المحبوب الذي لا يرجى حصوله؛ لكونه مستحيلا أو بعيد المنال. والأداة الموضوعة له " ليت"(٤). ووراء " ليت" في أكثر مواقعها – كما يقول أبو

---

(١) ديوان امرئ القيس، ص١٣٧.

(٢) دلائل الإعجاز، ص ١١٧.

(٣) الكامل في اللغة والأدب ٢٤٨/١، والعمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني ٧٠/١، ت محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، ط. الخامسة ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

(٤) ينظر: بغية الإيضاح٢٨/٢، وعلم المعاني د. فيود١٢٢/٢.

موسى- ظمأ لا يُروَى وأنها تصف آمالا حبيسة ورغائب لا سبيل إلى تحقيقها ولو كانت ممكنة فإنها عند المتمني وفي حس نفسه مما يبعد تحقيقها، وكلما أوغلت في البعد زادت النفس بها تحرقا واستعارا وانعكس ذلك على الشعر والبيان توهجا ونفاذا(١).

ومن المشهور في تمني المحبوب الذي لا طمع فيه لاستحالته، قول أبي العتاهية:

فَيا ليتَ الشبابَ يعودُ يوماً ... فأُخبرهُ بما فعلَ المشيبُ(٢)

فالذي يتمناه لا سبيل إليه لأن زمانه قد ولّى ولا يعود أبدا، ولكن رغبة الشاعر علت نفسه فلم تدع مجالا لوعي ولا فكر...

ومن أمثلة تمني المحبوب بعيد المنال، قوله تعالى- حكاية عن قوم قارون-:﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾[القصص:٧٩]، فهي أمنية محببة إلى نفوسهم وليست بمستبعدة في عرف أو عقل، ولكنها مستبعدة في نفوسهم لِمَا رأوا من كثرة كنوزه التي تنوء مفاتحها بالعصبة أولي القوة، فلا طماعية فيها لبعد منالها.

غير أن الأسلوب يتحرك بعيدا عن هذه الوضعية المقررة، متخذا العدول سبيلا إلى إجراء التمني بغير أداته الموضوعة له، فيقع التمني بـ(هل، ولو، ولعل). تعلق قلبي ومطمع نفسي يرى في هذا الخروج عن الأصل متنفسا لتحقيق المتمَنَّى بنظمه في سلك الممكنات القريبة الحصول.

ولله در ابن يعقوب حين أدرك القيمة النفسية لهذا الأسلوب حيث ذكر أن تمني مالا سبيل إليه قد يكون للاستعطاف أو للاعتذار، وقد يكون لمجرد موافقة الخاطر والترويح عن النفس(٣).

---

(١) ينظر: دلالات التراكيب ٢٠٣.

(٢) ديوان أبي العتاهية، ص ٤٦، ت: كرم البستاني، دار صادر بيروت، ط: الأولى، ١٩٦٤م.

(٣) مواهب الفتاح ٢/٢٤٠.

وقد لحظ البلاغيون فروقا نفسية دقيقة بين ألوان التمني التي يعبر عنها بغير " **ليت** "، ففي قوله تعالى-حكاية عن الكفار-:﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾[الأعراف:٥٣]، وقوله:﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾[غافر:١١]، جاء التمني بـ"هل" عدولا عن الأصل، ليفرغ على التمني لونا آخر يجعله في صورة الممكن، إذ الاستفهام يكون في الممكنات،" فكأن حاجتهم إلى شفيع، ورغبتهم في الخلاص غلبت على نفوسهم حتى صارت من فرط تعلقها بذلك تفرض غير الواقع واقعا، لتستروح بهذا الأمل الموهوم"(١).

وعبر عن ذلك اليعقوبي بقوله: والسر في العدول عن " ليت " التي هي الأصل في التمني إلى " هل " في نحو هذا الكلام، إبراز المتمنَّى في صورة المستفهم عنه الذي لا جزم بانتفائه، لإظهار كمال العناية به حتى لا يستطاع الإتيان به إلا في صورة الممكن الذي يطمع في وقوعه(٢).

وقد يتمنى بـ" لو" كما في قوله تعالى:﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾[البقرة:١٦٦،١٦٧]، وقوله تعالى:﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ *وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ* فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء:١٠٠-١٠٣]، وقوله تعالى:﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[الزمر: ٥٨].

والدلالة على إفادة " لو" التمني هنا، نصبُ المضارع في جوابها بأن المضمرة بعد الفاء؛ إذ لا ينصب المضارع بأن مضمرة بعد الفاء إلا بعد الأشياء السته وهي: الاستفهام والتمني والعرض- ودخل فيه التحضيض- والأمر والنهي والنفي. والمناسب ههنا التمني(٣).

---

(١) ينظر: دلالات التراكيب، ص ٢٠٥.

(٢) مواهب الفتاح ٢/٢٤٠، وينظر: مختصر المعاني ٢/٢٤٠، والمطول ٢٢٥.

(٣) ينظر: شروح التلخيص ٢/٢٤١، والمطول ٢٢٥.

والعدول عن " ليت" إلى " لو" في هذه الآيات يبعد المتمَنَّى من ساحة الإمكان ويهوي به إلى مكان سحيق من الاستحالة، ويرجع ذلك إلى طبيعة دلالة " لو" فهي تدل على امتناع الجواب لامتناع الشرط، وهو امتناع مطبق لدورانه في حلقة مغلقة. والسياق ينبئ بذلك، فقد قالوه لما رأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب، أو كبكبوا فيها هم والغاوون، وهو ما يصور شعور اللهفة اليائس في أن لا رجوع إلى الدنيا(١).

ومنه قول جرير:

ولَّى الشَّبَابُ حَمِيدَةً أيَّامُهُ ... لَوْ كَان ذَلِكَ يُشْتَرَى أَوْ يَرْجِعُ(٢)

فهو يخبر متحسرا عن مضي زمن الشباب وتوليه، ويتمنى عودته ولو كلفه ذلك ما كلفه، لكنه أدرك بُعْدَ ذلك واستحالته فاستخدم " لو" إمعانا في بعد هذا الأمل الموهوم.

كما قد يتمنى بـ " لعل" فتعطى حكم ليت(٣)، كقوله سبحانه:﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ* أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾[غافر:٣٦، ٣٧]، بنصب " فأطلع " كما في قراءة عاصم برواية حفص، وهذا لا يكون إلا إذا كانت " لعل " بمعنى " ليت" فهذه القراءة تجعل الرجاء تمنيا، فتفيد أن إحساس فرعون باطلاعه على إله موسى أمر مستبعد. وهكذا يعتقد لأنه لا يؤمن بأن لموسى إلها، وقد صرح بذلك

---

(١) يراجع: دلالات التراكيب، ص ٢٠٦، والبلاغة الاصطلاحية، د. عبده عبد العزيز قلقيلة ص ١٧٩، دار الفكر العربي، القاهرة، ط: الثانية ١٤١١هـ ١٩٩١م، وعلم المعاني، د. فيود ١٢٥/٢.

(٢) ديوان جرير، ص ٢٦٨،(وروايته: بان الشباب .... ولو أن ذلك يشترى...)، والعقد الفريد ٣٦١/٢.

(٣) هو نصب المضارع بعدها بأن مضمرة بعد الفاء. وهذا مبني على مذهب البصريين لأنهم لا ينصبونه بعد الترجي. (ينظر: مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي ٢/ ٢٤٥، ٢٤٦، وبغية الإيضاح ٣٠/٢).

فقال:﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾. وجاء التمني في عبارة الرجاء التي تكون للأمر المتوقع لأن في ذلك إيهاما بأنه جاد في التعرف على حقيقة ما يدعوا إليه موسى، فها هو يبلغ أسباب السموات ويجد في أن يطلع على حقيقة الأمر وكأن وراء ذلك إدلالا بقوة موقفه، وأنه إنما يفعل ذلك ليبطل ما قد يطوف في الأوهام أن في الكون إلها غيره، وهذا واضح في قراءة الرفع لأن الأسلوب فيها أسلوب رجاء وتوقع(١).

٥- النداء:

هو طلب الإقبال بحرف نائب مناب " أَدعوا" لفظا كـ" يا زيد"، أو تقديرا، كقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾أي: يا يوسف...

وله أدوات يجري عليها أسلوبه، كـ (الهمزة، وأيْ) لنداء القريب، و(يَا ، وآ، وآي، وأَيَا، وهَيَا، و "وَا ") لنداء البعيد(٢).

والنداء يكون في المقامات المهمة التي تستدعي الإقبال، وحين يعظم هذا الأمر يصحب النداء أساليب أخرى لها تأثير قوي كالأمر والنهي والاستفهام، وغالبا ما يتقدم النداء كضمان لاهتمام المخاطب وإصغائه والتفاته وتتبعه لما يلقى عليه، كقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[البقرة:٢١]، وقوله:﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾[الزمر:١٦]، وقوله:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[الحجرات:١]، وقوله جل ذكره:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ﴾[الصف:١٠]، وقد يتأخر، كقوله تعالى:﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]، وكأن فيه إغراءً على التوبة بهذا النداء الحبيب بهذا الوصف الشريف(٣).

---

(١) ينظر: دلالات التراكيب، ص ٢٠٦.

(٢) ينظر: شروح التلخيص٣٣٣/٢، ٣٣٤، والإيضاح ٩١/٣، ومن بلاغة النظم العربي ١٣٥/٢.

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي٢٢٤/٢،٣٢٣، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة بيروت، ١٣٩١هـ، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي٢٨١/٣، والأساليب الإنشائية، د. صبّاح عبيد دراز، ص٢٧٦.

ومن الدقائق التي تعد مظهرا من مظاهر العدول الأسلوبي في هذا الباب؛ أنهم قد توسعوا فيه، فلم يقفوا عند نداء القريب الذي لا يجاوز امتداد صوت المنادي، بل نادوا البعيد الذي يجاوز امتداد الصوت، كندائهم الغائبين والصاحبة التي أخبروا عن إيغالها في الرحلة، والنداء في هذا تعبير عن بواعث مشوقة إلى استحضار الصاحبة والحديث إليها.

وكذلك نودي الحي غير العاقل من النوق والطير والوحش وغيرها، ومشاهد الطبيعة من برق وسحاب وأقمار وشموس وأشجار، وكذلك القبور والفيافي والأطلال والديار. كما نوديت أحوال النفس وعواطفها من حب وبغض وحسرة وويل ولذة...الخ، ووراء كل ذلك أغراض وأسرار ومذاقات(١).

فمن نداء القبر، قول الحسين بن مطير يرثي معن بن زائدة :

فيا قبرَ معنٍ أنت أولُ حُفْرَةٍ ... من الأرض خُطَّتْ للسماحة مَضْجَعا

ويا قبرَ مَعْنٍ كيف واريتَ جودَهُ ... وقد كان منه البَرُّ والبحرُ مُتْرَعَا ؟(٢)

الشاعر هنا لم يطلب إقبال المنادَى، وإنما يكشف نداؤه عن قلب مستفز مكروب أثقلته وطأة الثكل، فتوارت في رؤيته حدود الأشياء فصار ينادي مالا ينادى، ويسائل من لا يجيب(٣).

ونداء الميت في قول عتي بن مالك:

أعدَاءُ من لليعملات على الوَجَى ... وأضياف ليلٍ بيَّتُوا لنزولِ

أعدَاءُ ما للعيش بعدك لذةٌ ... ولا لخليلٍ بهجةٌ بخليل

أعدَاءُ ما وجدى عليك بهينٍ ... ولا الصّبرُ إن أُعطِيتُهُ بجميل(٤)

---

(١) ينظر: دلالات التراكيب، ص ٢٦١، وعلم المعاني، د. فيود ١١٤/٢، ١١٥.

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي٦٥٩/١-٦٦١، وزهر الآداب ٨٥٠/٣، والعمدة في محاسن الشعر وآدابه١٤٨/٢.

(٣) ينظر: دلالات التراكيب، ص ٢٦٣.

(٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي٦٢٤/١، ٦٢٥.

قال المرزوقي: ناداه مسائلاً له على طريق التوجع والتحسر... وكرر مناداته دلالةً منه على لزوم التوجع، وتنبيهاً على حصول العناء والاشتكاء بعد التودع(١). واستعمل الهمزة مع بعد ما بينه وبين "عداء"، ولكنه أحسه قريبا من نفسه، وكأنه منه بحيث يسمع صوته القصير المذبوح(٢).

ونداء الناقة في قول حفص بن الأحنف الكناني يبكي ربيعة بن مكدّم:

لا يَبْعَدَنَّ ربيعةُ بن مُكَـدَّمٍ ... وَسَـقَى الغَوَادِي قبرهُ بذَنُوبِ
نَفَرَت قَلُوصي من حِجارةِ حَرَّةٍ ... بُنِيَتْ على طَلَق اليدين وَهُوبِ
لا تَنْفِرِي يا ناقُ مِنْهُ فإنــه ... شـرَّابُ خمر مسْعرٌ لِحُـرُوبِ
لَوْلاَ السِّفَارُ وبُعْدُهُ من مَهْمَهٍ ... لتركْتُهَا تَحْبُو على العُرْقُوبِ(٣)

الأبيات مفعمة بالأسى والحسرة، وفيها دعاء لربيعة بألا يبعد، ودعاء له بالسقيا، وكان الشاعر اجتاز بقبره فنفرت قلوصه، فأخذ يقتص ما كان اتفق وينكره ثم أخذ يصفه بالكرم والشجاعة، والتقدم والشرب والبطالة. ويعتذر من إبقائه على راحلته؛ لقلة الزاد وبعد السفر وتناهي المشقة ، حيث كانت العادة في العرب أن الواحد منهم إذا اجتاز بقبر كريمٍ كان مأوى للأضياف، ومقيماً لقراهم، ينحر راحلته ويطعمها الناس، يفعل ذلك نيابة عنه(٤).

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي١/٦٢٥.

(٢) دلالات التراكيب، ص ٢٦٤.

(٣) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي١/٦٣٩،٦٤٠، ومجمع الأمثال للميداني١/٢٢١، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة بيروت.[ونسبها غير واحد لحسان بن ثابت، وهي في ديوانه، ص ٣٦٤، ت: د. سيد حنفي حسنين، دار المعارف، القاهرة. ونفى ذلك في التاج، قال: وليس الشّعر لحسان ﷺ، كما وقع في الحماسة والعَيْن. تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد مرتضى الزبيدي، مادة " طلق" دار الفكر – بيروت، ط: الأولى ١٤١٤هـ].

(٤) ينظر: شرح ديوان الحماسة للمرزوقي١/٦٤٠.

ونداء الناقة هنا يكشف عن التجاوب بين الشاعر وبين ناقته ما يجعله متصورا أنها تشعر به تشاركه آلامه وأحزانه، وتتذوق من شمائل ربيعة ما يتذوق، وتأنس لهذه الحجارة التي بنيت على الحرّة إذا علمت أنها بنيت على جواد طلق اليدين شجاع، كما أنس صاحبها.

ونداء المنازل والديار، كما في قول النابغة الذبياني، يمدح النعمان بن المنذر ويعتذر إليه:

يا دارَ مَيّةَ بالعَلْيْاءِ، فالسَّنَدِ ... أقْوَتْ ، وطالَ عليها سالفُ الأبَدِ(١)

ونداء البرق في قول أبي تمام يمدح الحسن بن وهب ويصف فرسا حمله عليه:

يا برقُ طالع منزلاً بالأبرقِ ... واحْدُ السَّحابَ له حُدَاءَ الأنْيُقِ(٢)

والنداء هنا ينزع منزعا نفسيا واحدا هو الإحساس بالاندماج في هذه الأشياء والاقتراب منها وبث الروح الإنسانية فيها، لتكون قادرة على المشاركة والإحساس بما يحسه الشاعر من مشاعر مختلفة(٣).

فهذه النماذج وغيرها شاهد صدق على تخطي الأصل إلى أغراض أخرى تظهر من وراء تلك النداءات، تلفت إلى معاناة الشاعر النفسية، وانفعالاته العاطفية التي جعلته يرى في نداء هذه الأشياء متنفسا لبث شكواه وإظهار حزنه وأساه.

ومن مظاهر العدول أيضا: تبادل أدوات النداء مواقعها، فيستعمل ما للقريب للبعيد، وما للبعيد للقريب؛ تنزيلا للبعيد منزلة القريب، والقريب منزلة البعيد؛ لأغراض بلاغية تتجلى من متابعة السياق.

---

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ٧٦، ت: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٨٦م.

(٢) ديوان أبي تمام، ص ٤٣٨، تقديم: د. محي الدين صبحي، دار صادر بيروت، ط: الأولى، ١٩٩٧م.

(٣) ينظر: دلالات التراكيب، ص ٢٦٥.

فمن مناداة البعيد بأداة القريب؛ إشعارا بأنه حاضر في القلب لا يغيب عنه حتى صار كالمشهود الحاضر، قول ابن حيُّوس:

أَسُكَّانَ نَعْمَانِ الأَرَاكِ تَيَقَّنُوا ... بأَنَّكمْ في ربعِ قلبيَ سكَّانُ(١)

فتراه يخاطب سكان هذا المكان، معبرا بالهمزة الموضوعة للقريب؛ ليوحي بأنه مشغوف بهم، وأنهم في خبايا قلبه وبين جوانحه(٢).

وكقول عبد الله بن عنمة الضبي في رثاء ابنه:

أَأُبَيَّ لاَ تَبْعَدْ ولَيْسَ بِخَالِدٍ ... حَيٌّ ومَنْ تُصِبِ الْمَنُونُ بَعيد(٣)

فهو ينادي "أُبيًّا" وقد أصابته المنون فصار بعيدا عنه، فعدل إلى ندائه بالهمزة التي للقريب؛ تعبيرا عن حضوره في قلبه وتمكنه من فؤاده.

وفي المقابل ينادي القريب بأداة البعيد، عدولا عن الأصل؛ لأغراض بلاغية: كالإشعار ببعد منزلته وعلو قدره ،كقوله تعالى-حكاية عن إبراهيم عليه السلام-:﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا*يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم:٤٤،٤٥]، فأدب النبوة جعل أبا الأنبياء يعدل إلى استعمال أداة البعيد في مخاطبة أبيه، وهو في حضرته؛ إنباء برفعته وعلو منزلته عنده، وشدة حرصه عليه، واستمالته إلى الإصغاء إليه والاستجابة له.

أو لاستقصار الداعي نفسه واستبعادها عن مرتبة المدعو، كقولنا:" **يا الله**" مع أنه أقرب إلينا من حبل الوريد(٤). وقد ألمح إلى ذلك الزمخشري بقوله:" فإن قلت فما بال الداعي يقول في جؤاره يا رب ويا الله، وهو أقرب اليه من حبل

---

(١) ديوان ابن حيّوس- محمد بن سلطان الغنوي- ٦٤٥/٢، ت: خليل مردم بك، دار صادر بيروت، ١٩٨٤م.

(٢) ينظر: المطول، ص ٢٤٤، وحاشية الدسوقي٣٣٤/٢، ومن بلاغة النظم العربي١٣٦/٢.

(٣) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٧٢٩/١، وخزانة الأدب ٤٢/٩.

(٤) ينظر: مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي٣٣٤/٢، والمطول، ص ٢٤٤.

الوريد، وأسمع به وأبصر؟ قلت هو استقصار منه لنفسه واستبعاد لها من مظان الزلفى وما يقربه إلى رضوان الله ومنازل المقربين، هضما لنفسه وإقرارا عليها بالتفريط في جنب الله مع فرط التهالك على استجابة دعوته والإذن لندائه وابتهاله"(١).

أو للتنبيه على عظم الأمر المدعو له وعلو شأنه، حتى كأن المنادى مقصر في أمره غافل عنه مع شدة حرصه على الامتثال، نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾[المائدة:٦٧].

أو للحرص على إقبال المنادَى، فصار إقباله كالبعيد، لأن النفس إذا اشتد حرصها على الشيء صارت كل ساعة قبل وقوعه في غاية البعد، فتقول: "يا غلام بادر بالماء فأنا عطشان"، وكقوله تعالى: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِين﴾[القصص:٣١](٢) .

وعليه قول مرة بن محكان التميمي:

يا رَبَّةَ البيت قومي غير صاغرةٍ ... ضمِّي إليك رحال القوم والقُرُبَا(٣)

خاطب امرأته، وبعثها على القيام للاحتفاف بالنازلين من الأضياف، وعدل عن ندائها بأداة القريب إلى ندائها بأداة البعيد؛ حرصا منه على إقبالها، وتحفيزا لها لما يجب من القيام بحق الأضياف.

أو للتنبيه على بلادته وأنه بعيد من التنبيه، نحو: " تنبّه يا أيها الغافل". أو لانحطاط شأنه فكأنه بعيد عن مجلس الحضور، نحو:" من أنت يا هذا " ؟(٤).

وكذلك من مظاهر العدول: خروج أسلوب النداء عن معناه الأصلي من طلب الإقبال، إلى معان أخرى تفهم من السياق وقرائن الأحوال، **كالإغراء:** وهو الحث على لزوم الشيء، كقولك لمن أقبل يتظلم:" يا مظلوم"، فليس

(١) الكشاف ١/١٢١.
(٢) مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي٢/٣٣٤، والمطول، ص ٢٤٤.
(٣) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي١/١٠٩٣، والمثل السائر لابن الأثير ١/٢٨١.
(٤) مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي٢/٣٣٤، والمطول ٢٤٤، ٢٤٥.

القصد طلب إقباله لأنه حاصل، وإنما المراد إغراءه وحثه على زيادة التظلم وبث الشكوى(١).

والاختصاص: وهو تخصيص حكم علق بضمير باسم ظاهر صورته صورة منادى أو معرف بأل أو بالإضافة أو بالعلمية. مثل: " أنا أفعل كذا أيها الرجل" ونحو:" اللهم اغفر لنا أيتها العصابة"، فليس الغرض من النداء هنا طلبَ الإقبال، إذ ليس المراد بـ" أيها الرجل، وأيتها العصابة " المخاطب بل المتكلم نفسه، والمتكلم لا يطلب إقبال نفسه، ولذلك حمل على الاختصاص. والمعنى: أفعلُ ذلك مختصا من بين الرجال، واغفر لنا مخصوصين من بين العصائب. **والغرض من الاختصاص:** إما التفاخر، نحو "أنا أكرم الضيف أيها الرجل"، أو إظهار المسكنة والتواضع، نحو: "أنا أيها المسكين أطلب المعروف" أو لمجرد تأكيد مدلول الضمير، كقولك: " أنا أيها الرجل أتكلم بمصالحي"(٢).

والاستغاثة: وهي طلب الغوث، نحو" يا لله" أي يا الله أغثني في شدائد الدنيا والآخرة. **والتعجب:** كقولك عند شهود كثرة الماء أو كثرة حلاوته أو برودته، تعجبا منها:" يا للماء"، كأنه لغرابته يدعوه ويستحضره ليتعجب منه. **والتحسر والتحزن:** كما في نداء الأطلال والمنازل والمطايا ونحو ذلك(٣).

فالعدول بأسلوب النداء عن وضعيته الأصلية هنا، يقفنا على أمثال هذه المعاني التي تغني السياق وتثرى دلالاته.

ومن الأنماط الأسلوبية القائمة على العدول: تبادل الخبر والإنشاء موقعهما، فيقع الخبر موقع الإنشاء، والإنشاء موقع الخبر؛ لأسرار بلاغية تستنبط من

(١) ينظر: شروح التلخيص ٣٣٤/٢، ٣٣٥، والمطول ٢٤٥، والإيضاح ٩١/٣.
(٢) يراجع: شروح التلخيص ٣٣٥/٢ – ٣٣٧، والمطول، ص ٢٤٥.
(٣) ينظر: شروح التلخيص ٢/ ٣٣٧، والمطول، ص ٢٤٥، والإيضاح ٩٢/٣.

سياقاتها. وجعله السكاكي إجراءً لا على مقتضى الظاهر، وأن ذلك لا يصار إليه إلا لتوخي نكت لا يتفطن إليها إلا من رسخت قدمه في هذا العلم(١).

فيقع الخبر موقع الإنشاء: لقصد التفاؤل، نحو:" وفقك الله للتقوى" فإنه أبلغ من: اللهم وفقه؛ لأن الأصل في طلب الشيء يكون بصيغة الأمر، فعدل إلى صيغة الماضي الدالة على تحقق الوقوع، تفاؤلا بتحققه، فكأنه وقع وهذا إخبار بوقوعه ، إدخالا للسرور على قلب المخاطب بتحقق مطلوبه(٢).

أو لإظهار الحرص على وقوع المطلوب، لأن الطالب إذا عظمت رغبته في شيء يكثر تصوره إياه، فربما يخيل إليه حاصلا فيعبر عنه بصيغة الماضي المفيد للحصول، نحو:" رزقني الله لقاءك"(٣). وكقول الشماخ يرثي عمر بن الخطاب ﷺ:

جَزَى الله خيراً من أميرٍ وباركت ... يدُ الله في ذاك الأدِيمِ الممزَّق

ومَنْ يَسعَ أو يركب جناحَيْ نعامةٍ ... ليدركَ ما قدَّمْتَ بالأمس يُسْبَقِ(٤)

فهو يدعو الله له بالخير والبركة بما قدم للرعية، وأنه لا يستطيع أحد مجاراته في ذلك. وعدل إلى الدعاء بصيغة الخبر لإظهار حرصه على إجابة دعائه، وتفاؤله بتحقيقه.

أو للاحتراز عن صورة الأمر، كقول العبد للمولى إذا حول عنه وجهه: " ينظر المولى إليّ ساعة "، عدولا عن قوله: انظر، لأنه في صورة الأمر، فيكون أكثر تأدبا، مراعاة للمقام.

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم، ص ٣٢٣.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم، ص ٣٢٤، وشروح التلخيص٣٣٨/٢، والمطول، ص٢٤٦.

(٣) ينظر: مفتاح العلوم، ص ٣٢٤، ٣٢٥، وشروح التلخيص٣٣٨/٢، ٣٣٩، والمطول، ص٢٤٦.

(٤) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، ص ٤٤٨، ت: صلاح الدين الهادي، دار المعارف ١٩٧٧م، وشرح الحماسة للمرزوقي٧٦٤/١، والتبريزي- يحيى بن علي الشيباني- ٤٥٢/١، ٤٥٣، دار القلم بيروت.

أو لحمل المخاطب على تحقيق المطلوب أبلغ حمل بألطف وجه، كقولك لصاحبك الذي لا يحب تكذيبك: " تأتيني غدا " مكان:" ائتني " تحمله بألطف وجه على الإتيان لأنه إن لم يأتك غدا صرت كاذبا من حيث الظاهر، لكون كلامك في صورة الخبر(١). ومنه قوله تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّه﴾ وقوله:﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُم﴾[البقرة:٨٣، ٨٤]، في موضع: لا تعبدوا ولا تسفكوا، فعدل عنه إلى الخبر؛ حملا للمخاطبين على تحقيق ذلك وحثا لهم على سرعة الإجابة بالامتثال. ولذا قال الزمخشري:" لا تَعْبُدُونَ إخبار في معنى النهى، كما تقول: تذهب إلى فلان تقول له كذا، تريد الأمر، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهى، لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء، فهو يخبر عنه"(٢).

ويقع الإنشاء موقع الخبر لأغراض منها(٣): الاهتمام بالشيء، كقوله تعالى:﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[الأعراف: ٢٩]، أي: وبإقامة وجوهكم، فعدل عن الخبر إلى صيغة الأمر؛ إظهارا للعناية بأمر الصلاة وحرصا على أدائها على الوجه الأمثل. أو كما يقول ابن الأثير: فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر؛ للعناية بتوكيده في نفوسهم؛ فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده(٤).

ومنها: الرضا بالواقع حتى كأنه مطلوب، كقول النبي ﷺ:((من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار))(٥) ،أي:" تبوأ مقعده" فعدل عنه إلى صيغة

(١) ينظر: مفتاح العلوم ٣٢٥، وشروح التلخيص٢/٣٤٠،٣٣٩، والمطول٢٤٦.
(٢) الكشاف ١/١٥٩.
(٣) يراجع: الإيضاح ٣/٩٣، ٩٤، والبلاغة الاصطلاحية، ص ١٨٥، ١٨٦، وعلم المعاني، د. فيود ٢/١٢٩.
(٤) المثل السائر ٢/١٢.
(٥) جزء من حديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت ١/٤٣٤(ح ١٢٩١) ، وأخرجه مسلم في مقدمة صحيحه باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ ١/١٠(ح ٣) ت محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي–بيروت.

الأمر؛ إشعارا بأنهﷺ راض بأن يتبوأ الكاذب عليه مقعده من النار، حتى لكأنه يطلب له ذلك من الله، بل يأمر بأن يصلاه، وفيه من الوعيد والتحذير والزجر ما فيه.

ومنها: الاحتراز عن مساواة اللاحق بالسابق، كقوله تعالى- حكاية عن هود عليه السلام-:﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُون﴾[هود:٥٤]، عدل فيه عن الخبر" وأشهدكم" إلى الأمر " واشهدوا "؛ تحاشيا من مساواة شهادتهم بشهادة الله تعالى. وفيه أيضًا تعظيم لهود- عليه السلام- وإعلاء لشأنه وتحقير لهؤلاء الكفرة المشركين، حتى يخضعوا ويذعنوا ويستجيبوا لما يأمرهم به.

ولفت الزمخشري- رحمه الله- إلى سر آخر في العدول عن الخبر إلى الأمر، وهو أن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشدّ معاقده ، وأمّا إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب ، فعدل به عن لفظ الأوّل لاختلاف ما بينهما ، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة؛ تهكما بهم واستهانة بحالهم(١).

(١) الكشاف ٤٠٣/٢، ٤٠٤.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .. وبعد،

فهذه لمحة موجزة عرضت فيها لمظهر من مظاهر الأسلوب البلاغي تتمثل في عدوله عن الأصل، من خلال بابين مهمين من أبواب البلاغة العربية هما الخبر والإنشاء، واستبان من هذه الدراسة قيامُ البلاغة العربية في أغلب أبوابها على أساسين كبيرين هما الأصل والعدول عنه، وأن الأسرار تكمن أكثر ما تكمن في هذا الخروج عن النمط القياسي، مع التأكيد على عدم خلو الأصل من أسرار قد يقتضيها المقام، كالإطناب في مقامه والإيجاز في موطنه وهكذا..

ويجدر بنا أن نسجل هنا أهم ما توصل إليه هذا البحث من نتائج، أجملها فيما يلي:

١- يؤكد هذا البحث أصالة الموروث البلاغي ومواكبته للمستجدات الأسلوبية المعاصرة، ويدعو إلى الإفادة منها في ضوء معطيات الفكر البلاغي، فهذه المستجدات إنما نبتت من بذور هذا التراث وتفرعت من شجرته المباركة.

٢- يجب علينا أن نبدئ النظر ونعيده في تراثنا لنستخرج من درره النادرة وقطوفه المثمرة ما ينفعنا دينا ودنيا، وأن نضيف إليه ونفرع عليه ما يستجد على الساحة الأدبية والبلاغية، لا أن ننساق وراء كل ناعق ينعق بما لا ينفع بدعوى مواكبة الحداثة والثورة على القديم وأنه لم يعد يتناسب مع النظريات الحديثة والفكر الجديد، وكلها دعوات باطلة؛ لأنه ليس يصح لنا أن نستورد مناهج غيرنا لنفهم بها لغتنا.

٣- متابعة السياق من الأمور المهمة التي تعين على فهم المقصود من الأسلوب البلاغي عموما، ومن العدول في أسلوبي الخبر والإنشاء خصوصا، فلن يتسنى لنا فهم الخاصية البلاغية بمعزل عن سياقها.

٤- لا يشترط في أسلوب العدول أن يكون له أصل ظاهر ينتقل منه إليه، بل يكفي أن يوحي الأسلوب بما وراءه من دلالات وإيحاءات تستنبط بإعمال الفكر وإنعام النظر، وهو بهذا يعد شعبة من البلاغة فيها دقة وخفاء.

٥- إن حركة الأسلوب هي مجال الإبداع ومناط الفضيلة؛ لأنها تبرز القيم الجمالية في الكلام، وتكشف عن الرؤى الكامنة وراء النصوص، و تتطلب التعمق والغوص في أغوار المعنى للكشف عما يفيض به من أسرار وتجليات.

٦- أدرك علماؤنا القدامى فكرة العدول حين اعتبروه مخالفة للمألوف في عرف اللغة والتمسوا له أسرارا، على حين اعتبر البلاغيون الأصل مقياسا ومعيارا، فبدأوا به حديثهم، ثم انتقلوا منه إلى ما خالفه مما يمثل العدول عن هذا الأصل، وركزوا على بيان أسراره، وبهذا فقد دخل العدول جل أبواب البلاغة.

٧- بلاغة الأسلوب ليست مقصورة على العدول كما ذكر بعض المعاصرين، بل إن الصور التي يأتي الكلام فيها على الأصل لها مقاماتها وأسراها البيانية وسماتها الجمالية.. فالبلاغة لا تهتم بما خالف الأصل فحسب بل تدرس الكلام وإن وافق الأصل استظهارا للدلالات اللغوية والأسرار البلاغية في استعماله.

وغير ذلك مما هو مبثوث في ثنايا البحث ...

وبعد: فهذا جهد المقل، أسأل الله تعالى أن يعفو فيه عن الزلات وأن يرفع به الدرجات، إنه ولي ذلك ومولاه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثبت المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

٢- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، د. صبّاح عبيد دراز، مطبعة الأمانة، القاهرة، ط: الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

٣- أسرار البلاغة، للإمام عبد القاهر الجرجاني، ص٣٦٦ ت: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة، ط: الأولى ١٤١٢هـ١٩٩١م.

٤- الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ط: الثالثة.

٥- إعجاز القرآن للباقلاني، ت: السيد أحمد صقر،دار المعارف، القاهرة، ط:السابعة، ٢٠٠٩م.

٦- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، ت: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط: الثالثة.

٧- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ت، صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ط:١٤٢٠هـ.

٨- البرهان في علوم القرآن للزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة بيروت،١٣٩١هـ.

٩- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب. ط: الثانية عشرة، ١٤٢١هـ -٢٠٠٠م.

١٠- البلاغة الاصطلاحية، د. عبده عبد العزيز قلقيلة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط: الثانية، ١٤١١هـ ١٩٩١م.

١١- البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط: الثالثة ٢٠٠٩م.

١٢- تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد مرتضى الزبيدي، دار الفكر، بيروت، ط: الأولى،١٤١٤هـ.

١٣- تفسير أبي السعود ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٤- تفسير الطبري، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.

١٥- جمهرة اللغة لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد، ت: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط: الأولى ١٩٨٧م.

١٦- حاشية السيد الشريف الجرجاني على المطول، مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ.

١٧- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر ابن عمر البغدادي، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ط: الرابعة، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

١٨- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: الخامسة، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

١٩- خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم ، د. الشحات محمد أبو ستيت، مطبعة الأمانة، القاهرة، ط: الأولى١٤١٢هـ - ١٩٩١م .

٢٠- الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: الرابعة.

٢١- دراسات في علم المعاني، د. صبّاح عبيد دراز، د. الشحات محمد أبوستيت، مطبعة الشروق بالراهبين، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٢٢- دلالات التراكيب دراسة بلاغية، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: الرابعة ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٢٣- دلالة العدول في صيغ الأفعال، دراسة نظرية تطبيقية، د. غيّاث بابو، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، جامعة سامنان الإيرانية وتشرين السورية، العدد ١٢، ١٣٩١هـ- ٢٠١٣م.

٢٤- دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت: العلامة محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة، ط: ثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

٢٥- ديوان ابن الرومي، شرح: أ/ أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثالثة، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

٢٦- ديوان ابن حيّوس- محمد بن سلطان الغنوي- ت: خليل مردم بك، دار صادر بيروت، ١٩٨٤م.

٢٧- ديوان أبي العتاهية، ت: كرم البستاني، دار صادر بيروت، ط: الأولى، ١٩٦٤م.

٢٨- ديوان أبي تمام، تقديم: د. محي الدين صبحي، دار صادر بيروت، ط: الأولى، ١٩٩٧م.

٢٩- ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، ت: صلاح الدين الهادي، دار المعارف ١٩٧٧م.

٣٠- ديوان الفرزدق، دار صادر بيروت.

٣١- ديوان النابغة الذبياني، ت: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٨٦م.

٣٢- ديوان امرئ القيس، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط: الثانية ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٣٣- ديوان بشار بن برد، شرح وتعليق: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر.

٣٤- ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٣٥- ديوان عمرو بن كلثوم، دار صادر بيروت، ط: الأولى، ١٩٩٦م.

٣٦- ديوان كُثَيِّر عزة ، شرح: عدنان زكي درويش، دار صادر، بيروت، ط: الأولى، ١٩٩٤.

٣٧- ديوان لبيد بن ربيعة، دار المعرفة، ط: الأولى، ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م.

٣٨- ديوان مهلهل بن ربيعة، تقديم: طلال حرب، دار صادر بيروت، ط الأولى، ١٩٩٦م.

٣٩- روح البيان لإسماعيل حقي البروسوي ، ط. دار الفكر، بيروت.

٤٠- روح المعاني للألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤١- رؤية في العدول عن النمطية في التعبير الأدبي، د. عبد الموجود متولي بهنسي، ط: الأولى ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

٤٢- زهر الآداب وثمر الألباب، لإبراهيم بن علي الأنصاري القيرواني، دار الجيل، بيروت.

٤٣- شرح الأربعين النووية للإمام ابن دقيق العيد، نشر المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة.

٤٤- شرح الحماسة للتبريزي- يحيى بن علي الشيباني-، دار القلم بيروت.

٤٥- شرح ديوان الحماسة، أحمد بن محمد المرزوقي، تحقيق: غريد الشيخ. دار الكتب العلمية- بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

٤٦- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، لأبي الحجاج يوسف بن سليمان المعروف بالأعلم الشنتمري، ط: الأولى، المطبعة الحميدية المصرية ١٣٢٣هـ.

٤٧- شرح شعر المُتَنبي لابن الإفليلي، ت: د. مصطفى عليَّان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٢ هـ -١٩٩٢ م.
٤٨- شروح التلخيص للعلامة سعد الدين التفتازاني وآخرين، ط: دار السرور- بيروت.
٤٩- شروح سِقط الزَّند، ت: مصطفى السقا، وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م.
٥٠- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي القلقشندي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥١- صحيح البخاري، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، بترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار طوق النجاة ، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ.
٥٢- صحيح مسلم، ت محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٥٣- ظاهرة العدول في شعر المتنبي، مصطفى عبد الهادي عبد الله، المجموعة العربية للتدريب والنشر، ط: الأولى ٢٠١٠م.
٥٤- ظواهر فنية في لغة الشعر العربي الحديث، علاء الدين رمضان السيد، منشورات الكتّاب العرب، دمشق ١٩٩٦م.
٥٥- العدول القرآني في سياق إجلال النبي- ﷺ- وإيناسه "دراسة بلاغية" د. رفعت على محمد، مجلة كلية أصول الدين بأسيوط، العدد (٣١) ٢٠١٣ م.
٥٦- العدول في البنية التركيبية، قراءة في التراث البلاغي، د. إبراهيم منصور التركي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، الجزء ١٩، العدد ٤٠، ١٤٢٨هـ.
٥٧- العدول في الجملة القرآنية، د. عبد الله خضر حمد، دار القلم، بيروت، ٢٠١٧م.

٥٨- العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤٠٤هـ.

٥٩- علم المعاني د. صبّاح عبيد دراز، مطبعة التركي بطنطا ١٩٩٧.

٦٠- علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني. د. بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار، القاهرة، ط: الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٦١- العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني، ت محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، ط. الخامسة ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

٦٢- الفائق في غريب الحديث والأثر للعلامة الزمخشري، ت: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط: الثانية.

٦٣- فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة بيروت، ١٣٧٩هـ.

٦٤- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الفكر بيروت.

٦٥- فن البلاغة، د. عبد القادر حسين، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة.

٦٦- الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرد، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط: الثالثة ١٤١٧هـ- ١٩٩٧ م.

٦٧- كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، ت: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، نشر: دار ومكتبة الهلال.

٦٨- الكشاف للعلامة الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت ط: الثالثة، ١٤٠٧هـ.

٦٩- لزوم ما لا يلزم ـ اللزوميات لأبي العلاء المعري، دار صادر بيروت.

٧٠- لسان العرب لابن منظور، دار صادر – بيروت، ط: الثالثة، ١٤١٤ هـ.
٧١- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ.
٧٢- مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى، ت: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي القاهرة ١٣٨١هـ.
٧٣- مجمع الأمثال للميداني، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة بيروت.
٧٤- مسند الإمام أحمد بن حنبل، ت: شعيب الأرنؤوط، وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت ط: الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١.
٧٥- المطول على التلخيص للعلامة سعد الدين التفتازاني، مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ.
٧٦- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عبد الرحيم العباسي، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت.
٧٧- معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس، ت:عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ -١٩٧٩م.
٧٨- مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف السكاكي، ت: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٧٩- المفضليات، للمفضل بن محمد بن يعلى الضبي، ت: أحمد محمد شاكر، و عبد السلام محمد هارون، دار المعارف – القاهرة ، ط: السادسة.
٨٠- مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، حامد صالح الربيعي، منشورات جامعة أم القرى،١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
٨١- من بلاغة النظم العربي دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. عبد العزيز عرفة، عالم الكتب، بيروت، ط الثانية ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م.

٨٢- نظرية البنائية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل، دار مختار، القاهرة ١٩٩٢م.

٨٣- نظرية اللغة في النقد العربي، د. عبد الحكيم راضي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط: الأولى،٢٠٠٣م.

٨٤- النكت في إعجاز القرآن لعلي بن عيسى الرماني، ت: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط: الثالثة، ١٩٧٦م.